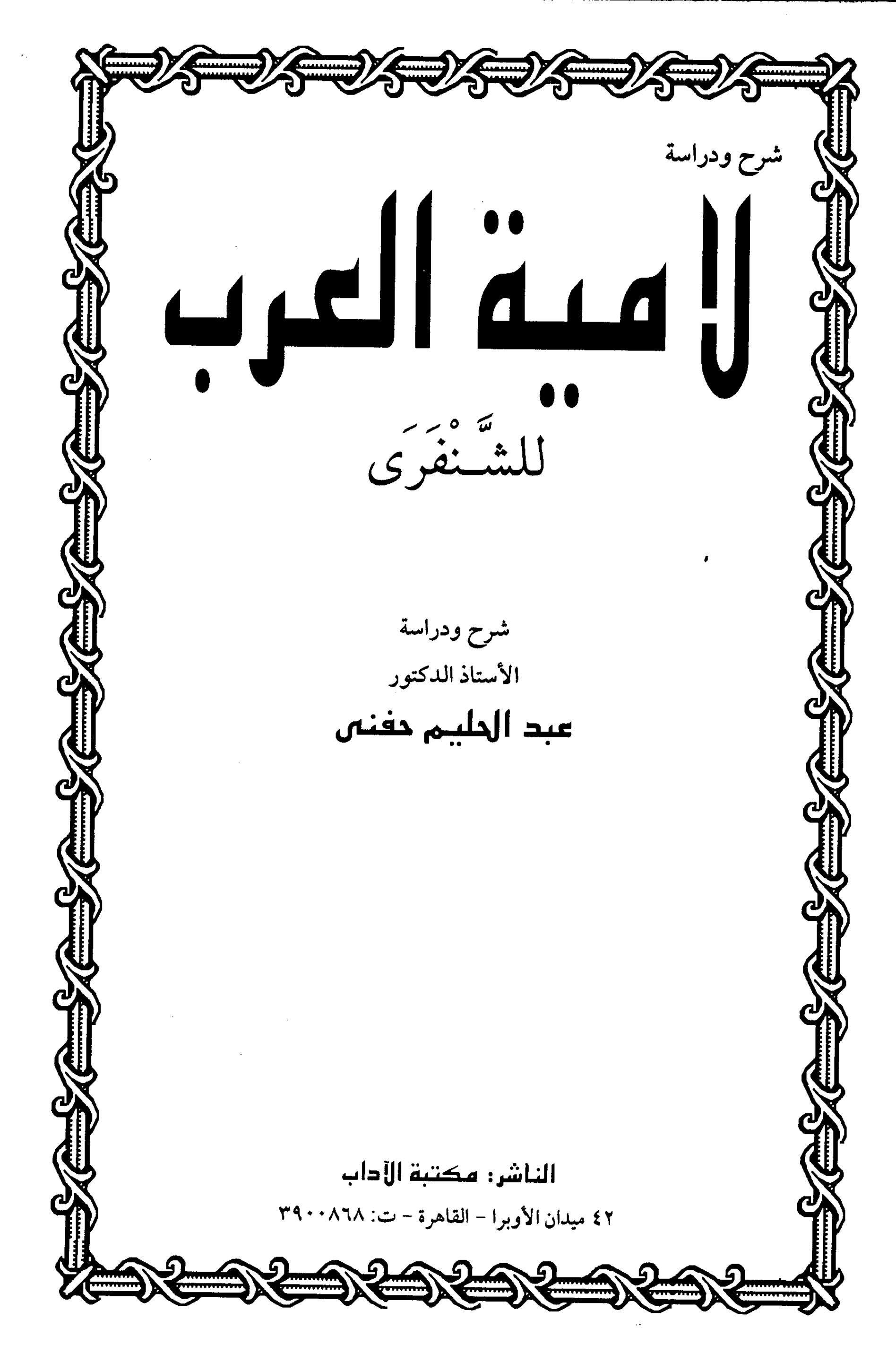


شرح ودراسة

لامية العرب

للشَّنْفَرَى

شرح ودراسة

الأستاذ الدكتور

عبد الحليم حفني

الناشر: مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨



مقدمة

لم يختلف النقاد سواء فى القديم والحـديث على أن لاميةَ العرب درةٌ من أثمن ما يحـوى الأدب العربى قـاطبة، ولـذلك توفر عليـها فـى القديم جُلَّةُ الأدباء والنقـاد والعلماء بالشرح والتحليل ومحاولة إبراز ما تحتوى من مزايا.

وأما فى الحديث: فـقد كان المستشـرقون أول من نفض عنها غبـارَ الإهمال وكآبة الانزواء، فإذا باللامية تملأ عليـهم نفوسهم إعجاباً وإكباراً، وإذا حديثـهم عنها مفعَمٌ بهذا الإعـجاب والإكبار، وإذا هم يحـرصون على أن ينقلوها بلغـاتهم إلى مواطنهم ليمتعوا شعوبهم بهذا الأدب الرفيع، وليضيفوا إلى أدبهم ثروة تساهم فى البناء والنماء الأدبى. وعندئذ أخذ الدارسـون العرب فى العصـر الحديث يلتفـتون إلى هذه الكنوز الأدبية ويُولونها شيئًا من اهتمام، ولكن اللامية بالذات لم تحظَ بما ينبغى أن تحظى به، وأيسرُ ذلك أن تُنقل إلى الشبـاب وطلاب الثقافة فى صورة ميسـرة بالشرح والتوضيح حتى يتاح لهم أن يستمتعوا بما تنطوى عليه من جمال أدبى، ومن عمق فنى يملأ على المتذوق روحَـه ووجدانه، بل كـانت النتيـجة على العكس من ذلك؛ فـبدل أن يؤدى الاهتمـامُ باللامية إلى تدعـيم لكيانها ونفعٍ بمضـمونها، أدى إلى شىء من التـشويش عليهـا وزعزعة كيـانها، حين حاول بعض الدارسين المـعاصرين مجـاراة رأيٍ متطرف لبعض المستـشرقين محاولاً التشكيك فى نـسبتها إلى قائـلها، والخطورة فى مثل هذه الآراء المتطرفة أو غير المتثبتة أنها حين ينادى بها مَن يتولون شئون التعليم وبخاصة فى الجامعات يدفعون بعضَ الأجيال التالية لهم من تلاميذهم إلى مجاراة هذه الآراء. بل الأشد خطورةً أن صاحب الرأى قد يُدلى برأيه فى صورة المجتهد الذى يحاول تلمس الحقيقة،وقد يـصيبها وقد لا يصيب، وهو يعلم أنه مجتهـد فى رأيه، وغالباً ما يُفهم من حديثـه ذلك، ولكن تلميـذه قد يأخذ رأيه هذا وكـأنه حقـيقةٌ علمـية أو قضـية مُـسَلَّمـة. وقد اضطرنى سيـاقُ البـحث العلمى أن أناقش فى بحث سـابق[1] هذا

(١) هو كتاب «شعر الصعاليك منهجه وخصائصه».

التشكيك الذى أثير حول لامية العرب، ولكن هذا السياق لم يكن يسمح بشرحها وتيسير معانيها حتى تقرب من أذواق الطالبين للأدب، والراغبين فى تذوق تراثهم الشعرى الذى يبهر حتى غير العرب، كما بهرت اللامية المستشرقين.

ولقد حرصت فى هذا الكتاب على محاولة تقريب اللامية من أفهام الدارسين وأذواقهم، وعلى إبراز أهم الجوانب التى تحتوى عليها من الناحية الأدبية، والتى تحقق للدارسين بعض هذه الغاية التى ننشدها، والتى نتمنى أن تَحْظَى بمزيد من اهتمام الدارسين والقائمين على شئون التعليم، ألا وهى إزالة الفجوة بين الشباب العربى وتراثه الأدبى القديم، هذا التراث الزاخر بكل ما ينشده الشباب من متعة وجدانية، ومن مثيرات لمشاعره وعواطفه، ومن دوافع لحماسه وتدفق حيويته، بل إن الشباب حين يتاح له أن يتذوق ما فى هذا التراث سيصغر فى عينه وقلبه ومشاعره كثير مما يُلهى به فى هذه الأيام من أدب رخيص مبتذَل مُسِفّ، يُعرَض عليه مُصبحاً وممسياً، سواء فى دور اللهو أو وسائل الإعلام؛ أقله الجيد، وأكثره مفسد للذوق والعقل والإحساس، سواء صيغ فى قصص مطبوعة أو ممثلة فى دور اللهو، أو صيغ فى مسرحيات، أو كان فى تمثيليات مذاعة أو مرئية، بل فى كثير مما يُعرض على الناس على أنه شعر أو نتاج أدبى!. مع أننا حين نعرض على الشباب والمثقفين هذا التراث الأدبى القديم فسنُعلمهم كيف يسمو المرء بوجدانه وإحساسه وذوقه، حين يُدرك كيف يكون الأدب الحقيقى فى لفظه وفى معناه، فى خياله وفى تعبيره، فى عمقه وفى دقة حسه، نُعلِّمهم كيف يسمو المرء بعواطفه، حين يرى مثلاً كيف يصوِّر الشعر الحب فى صورته الإنسانية النبيلة التى ابتذلها ما يسمونه اليوم أدباً أو فناً فصوَّرها فيما لا يعدو أن يكون رغبةً بهيمية لا يربطها بالروح والعواطف سببٌ قريب أو بعيد.

وما أحوج الفتيات والمثقفات إلى دراسة الشعر القديم وتذوقه ليرين الخديعة الكبرى التى يضللهن بها ما يسمَّى اليوم أدباً. حين يصوِّر لهن أنهن كنَّ بالأمس متاعاً رخيصاً وإماء مستعبدات، وأنَّ ما يسمى اليوم أدباً هو الذى يدعو إلى حريتهن، وإلى إعلاء كرامتهن، وما أشد خيبة آمالهن حين يكتشفن أن ما يسمى اليوم أدباً قد أضلهن ضلالاً كبيراً عن الحقيقة، وأن الحقيقة هى العكس؛ فالأدب القديم يجعل من كل شىء فى المرأة موضعاً للجمال، ومجالاً للخيال، سواء فى كيانها المادى أو المعنوى، فأما فى كيانها المادى فكلها مجال للخيال من شعرها إلى قدميها، وفى كيانها المعنوى

مجـال آخر زاخر فـياض بوصف العواطف والخـواطر والمشاعـر ونحو ذلك، بل إن الشعر القديم لم يكتف بأن يجعل كيـان المرأة وحده مجال خياله، وإنما تلمس كل ما يحيط بها أو يتعلق بشأنها، من الديار التى تسكنها أو الراحلة التى تقلها أو الآثار التى حلت بها أو الطريق التى وطأتها، بل أوغل خيال الشعـر القديم فيما يتعلق بالمرأة إلى ما هو أبعد من ذلك مما يفـيض به الأدب القديم. بينما على النقيض مـا يسمى اليوم أدباً أو فناً يرخص كل شىء فى المرأة، بل يكاد يلغى كل مـا فيها إلا شيـئًا واحداً هو ما يتعلق بالرغبـة الحيوانية، وسيجدن أن الأدب القديم يجعل المـرأة قمراً فى السماء، بينما يجعلها أدب اليوم مجرد جسد فى الأرض، وبينما كانت فى الأدب القديم أمنية عزيزة صعبة المنال أصبحت فى أدب اليوم مجرد لقمة رخيصة سهلة المنال.

ولو قُدر للأدب القديم أن يُعرض على الناس حتى يصل إلى مشاعرهم وأذواقهم، فسيـرى القائمون على الأمـر، والمسئولون عن التربيـة والتوجيه فى وسـائل الإعلام كيف أن الأدب القديم يسمو بحماس الشباب وحـيويته واندفاعه فيوجه ذلك كله نحو المثل العليا والأهداف القومية والغايات النبيلة، حين يملأ نفوسهم ما يجدونه فى الشعر القديم من معانى الشجاعة والإقدام والبـأس الشديد موجَّهاً نحو غايات نبيلة وأهداف سامية، بينما يـجدون ذلك فى أدب اليوم يدفع الشباب دفعاً حثـيثاً إلى سبل الإجرام ووسائل الانحراف.

وليس أدل على هذه المفارقة العجيبة فى الموازنة بين الأدب القديم وما يسمونه اليوم أدباً من أننا حين ننظر إلى شعر الصعاليك وهم طائفة قطَّاع الطرق فى المجتمع العربى القديم، لا نجد هذا الـشعر داعياً ولا حـافزاً إلى الإجرام والانحراف كـما يفعل أدب اليـوم، بل على العكس نجده يـدعو دعـوة واضحـة قوية إلى الخلق والمبـادىء، وأن شعـرهم ليحفل بما تمثَّل به الناس فى كل العـصور ولا يزالون يتمـثلون به فى الدعوة إلى الفضيلة والخلق.

نريد من كل هذا أن نقول إن تراثنا الأدبى القـديم ليس بمعزل عن الحيـاة، بل فيه كل متطلبات المجتمع حتى حين يجنح إلى المتعة الوجدانية والترفيه العقلى.

ونريد أن نقول إن إحيـاء هذا التراث الأدبى المجيد يعلم الناشئـين أن يحذوا حذوه حين يحاولـون التعبـير، حيـث تكون نفوسهم قـد استـقت منه فتأثـرت به، وحيث

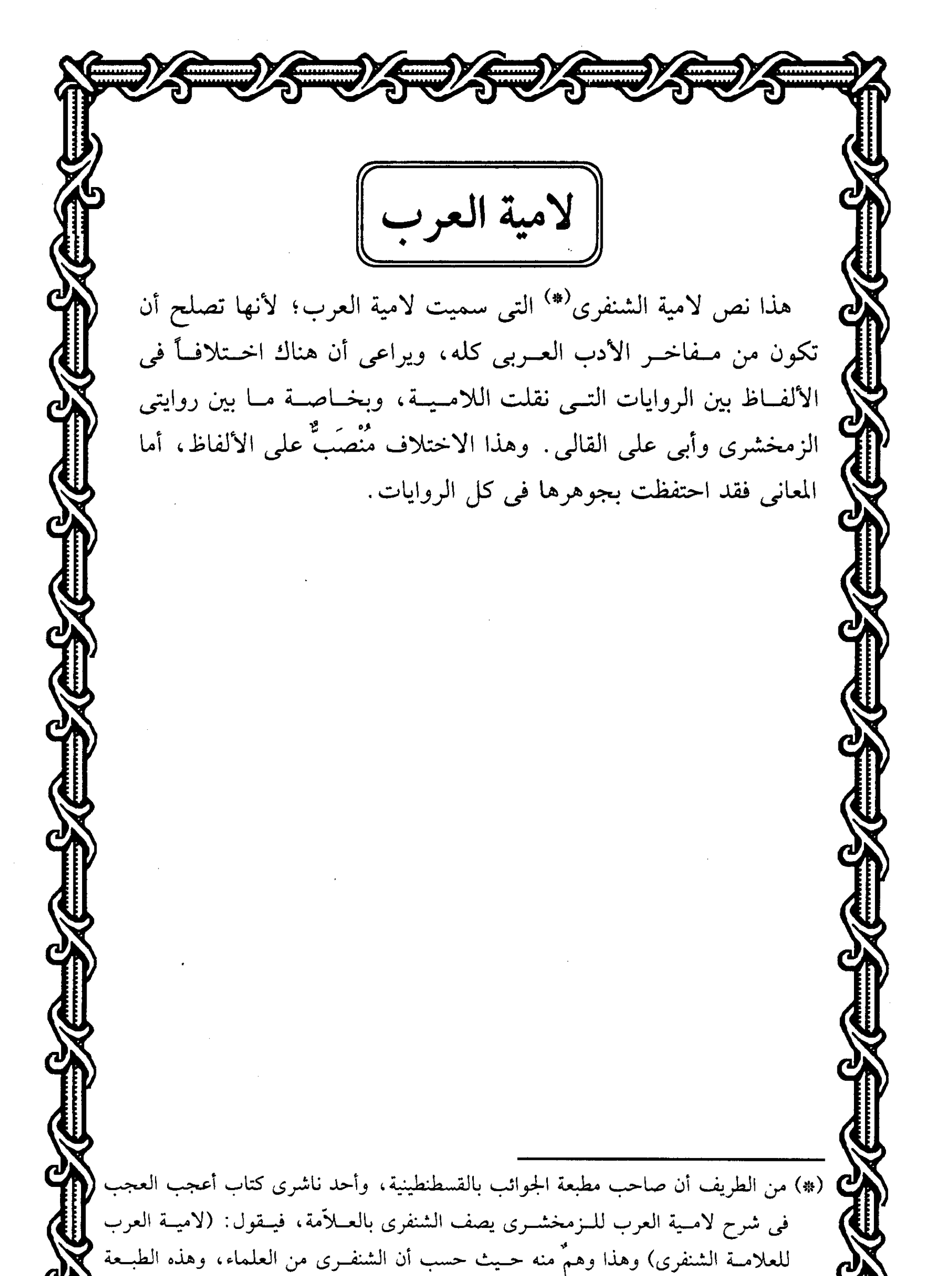
يعرفون كيف يكون الأدب الرفيع فلا ينحدرون إلى التبذل والإسفاف.

وإذن فليرتفع الصوت بإحياء الأدب القديم وتقريبه إلى نفوس الناشئين وأذواقهم، وليرتفع الصوت أيضاً بإخماد ما يسمونه اليوم أدباً قبل أن يفسد ما بقى من أذواق الناشئين ومشاعرهم، وأخلاقهم أيضاً.

فى محيط هذه الدوافع كانت محاولتى لتقريب لامية العرب من نفوس الشباب وأذواقهم. ولقد رأيت أن مجرد شرح أبيات اللامية لفظاً ومعنى مع إلقاء الضوء على بعض النواحى البلاغية ليس مما يفى بالغرض؛ فأتبعت الشرح بتعليق لا غنى عنه يلقى الضوء على صاحب اللامية، صفاته، وظروفه البيئية والنفسية، ونهايته الفريدة، وعن الصعاليك كأصحاب منهج متميز فى الحياة والشعر، وكان لا بد لى فى خاتمة المطاف أن أعلق على ما أثير حول اللامية من جدل، وأن أذكر آراء النقاد فيها كدرَّة فريدة من درر الأدب العالمى وليس الأدب العربى فحسب.

والله أسأل أن تكون هذه الدراسة قد حققت ما ينبغى وما أريد.

د. عبد الحليم حنفى



لامية العرب

هذا نص لامية الشنفرى(*) التى سميت لامية العرب؛ لأنها تصلح أن تكون من مـفاخـر الأدب العـربى كله، ويراعى أن هناك اخـتلافـاً فى الألفـاظ بين الروايات التـى نقلت اللامـيـة، وبخـاصـة مـا بين روايتى الزمخشرى وأبى على القالى. وهذا الاختلاف مُنْصَبٌّ على الألفاظ، أما المعانى فقد احتفظت بجوهرها فى كل الروايات.

(*) من الطريف أن صاحب مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، وأحد ناشرى كتاب أعجب العجب فى شرح لامـية العرب للـزمخشـرى يصف الشنفرى بالعـلاّمة، فيـقول: (لاميـة العرب للعلامـة الشنفرى) وهذا وهمٌ منه حـيث حسب أن الشنفـرى من العلماء، وهذه الطبـعة ظهرت سنة ١٣٠٠هـ وبهامشها شرح للمبرد على اللامية.

أَقِـيـمُـوا بَنِى أُمِّـى صُـدُورَ مَطِـيِّكُمْ
فَـإِنِّى إِلَى قَـوْمٍ سِــوَاكُمْ لأَمْـيَلُ [١]

فَقَـدْ حُمَّتِ الحَـاجَاتُ واللَّـيْلُ مُقْـمِرُ
وَشُــدَّتْ لِطِيَّـاتٍ مَطَايَـا وَأَرْحُلُ [٢]

---

(١) يريد أنه صمم على أمر معين، و هيأ نفسه له، وهو الرحيل عن هذا المكان إلى مكان آخر؛ لأنه ضاق بهذا المكان وأهله، وعليهم أيضاً أن يهيئوا أنفسهم لذلك، **وبنو الأم**: الأشقاء من الإخوة أو غير الأشقاء ما دامت تجمعهم الأم، واختار هذه الصلة لأنها أقرب الصلات إلى العاطفة والمودة وهكذا كل ما يرتبط بالأم أو يأتى عن طريقها من الصلات. وهو لا يقصد إخوة حقيقيين، وإنما يريد أنه قرر هجر الناس جميعاً حتى أقربهم إليه. **والمطايا** يريد الإبل، **وإقامة صدورها** كناية عن التهيؤ للرحيل، وليس معناه السير فعلاً كما فى بعض الشروح، فالمنظر الواقعى للناقة أنها إنما تنصب صدرها عندما تتهيأ للقيام من بروكها. والشطر الثانى تعليل للشطر الأول، والتفضيل فى (أميل) ليس على حقيقته، فهو لا يفاضل بين ميله إليهم وميله إلى غيرهم، وإنما يريد أنى كرهت مقامى بينكم وأرغب فى مكان سوى هذا المكان، والتعبير بإقامة صدور الإبل تصوير أدبى يجسم المعنى ويبرزه، وهو لا يريد منهم الاستعداد لرحيلهم هم، وإنما يريد استعدادهم لرحيله هو عنهم، وكأنه يشير إلى أنهم لا مقام لهم بعد رحيله، فمن الخير لهم أيضاً أن يرحلوا.

(٢) **حمت** بالبناء للمجهول: قدرت ودبرت. **والطية**: بالكسر الحاجة أو النية المدبرة وكلاهما يصلح هنا. **والأرحل**: جمع رحل وهو ما يوضع على البعير. ومعنى البيت قريب من المثل القديم (أمرٌ أُبرم بليل) فالمعنى أن هناك أمراً عقد عليه العزم ودبره فى روية وأناة، وحينئذ يكون صاحبه مقتنعاً به، وهو المراد من (والليل والقمر) فضوء القمر هنا ليس مراداً بحقيقته، وإنما هو كناية عن التفكير فى هدوء ورضا نفس، ويراد به أيضاً أنه أمرٌ لا يراد إخفاؤه، فهو فى الضوء وليس فى الظلام، والشطر الثانى معناه أن الرواحل والمطايا قد شُدت وهو تعبير عن العزم والتصميم، **ولطيات** بكسر الطاء عقدنا عليه العزم. والبيت مبنى على سابقه، والمعنى: هيئوا أنفسكم لحدث كبير دبر بعزم وتصميم، وهو رحيلى عنكم، وهذا يدل على اعتزازه بنفسه، وشعوره بأنه ذو تأثير فى إقامته ورحيله.



وَفِى الأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ [٣]

لَعَمْرُكَ ما فى الأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِىءٍ
سَرَى رَاغِباً أَو رَاهِبًا وهو يَعْقِلُ [٤]

وَلِى دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ
وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ [٥]

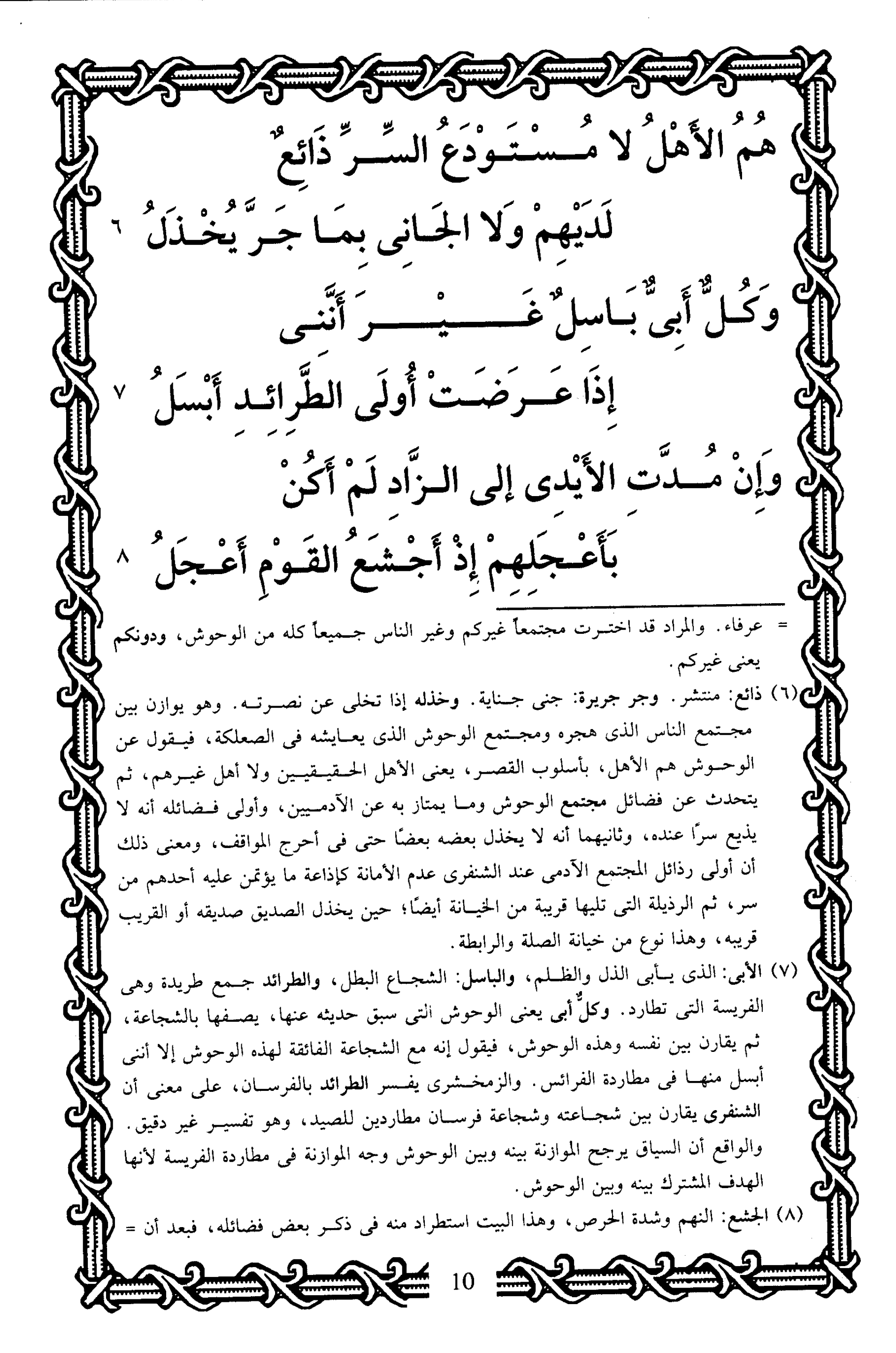
---

(٣) **المنأى**: المكان البعيد، **والقلى**: البغض والكراهية، **والمتعزل**: مكان العزلة عن الناس، والبيت حكمة ، شطره الأول معناه أن الكريم يستطيع أن يربأ بنفسه عن الذل والأذى فيهاجر إلى أى مكان بعيد، والشطر الثانى معناه أن اعتزال الناس أكرم من الإثقال عليهم واحتمال نفورهم وكراهيتهم، ونلاحظ الدقة فى التعبير فى الشطرين، فعند الأذى والذل يجب البعد وهذا إذا لم يستطع دفعه، أما عند مجرد الكراهية فتكفى العزلة ولو دون حاجة إلى رحلة بعيدة.

(٤) **العمر**: بفتح العين أو ضمها مع سكون الميم الحياة. **سرى**: مشى فى الليل. **راغباً**: صاحب رغبة. **راهب**: من الرهبة وهى الخوف. والبيت تأكيد لسابقه، حيث يحلف أن الأرض واسعة، سواء لصاحب الحاجات والآمال، أو للخائف؛ فالأول يستطيع تحقيق آماله فى الرحلة والتنقل، والثانى يستطيع أن يجد الأمن فى الرحلة عن المكان المخوف ، وجملة «وهو يعقل» قيد دقيق، معناه أن تحقيق الهدفين السابقين إنما يكون إذا صاحَبه التفكير وحسن التدبير، وهذه الأبيات الأربعة السابقة تمثل معنى متكاملا، هو أنه قرر فى عزم وتصميم أن يرحل عن المجتمع، وأن السبل ليست مغلقة فى وجهه، بل أمامه آفاق واسعة مفتوحة.

وهذا التفكير يمثل بداية الاتجاه إلى الصعلكة وقطع الطريق، حيث قرر هجر الناس لا لينتقل إلى أناس آخرين، وإنما إلى الوحوش والفلوات وما سيتحدث عنه بعد ذلك.

(٥) **أهلون**: جمع أهل، **والسيد** بكسر السين الذئب، **والعملس** الذئب القوى السريع، **والأرقط** النمر الذى فى جلده بياض وسواد، **والزهلول**: الأملس، **والعرفاء** الضبع الطويلة العرف، **وجيأل** اسم للضبع تقدمت عليه صفته، والمعنى ضبع طويلة العرف والأصل جيأل =



هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائِعٌ
لَدَيْهِمْ وَلا الجَانِى بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ ٦

وَكُلٌّ أَبِىٌّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنَّنى
إِذَا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرائِدِ أَبْسَلُ ٧

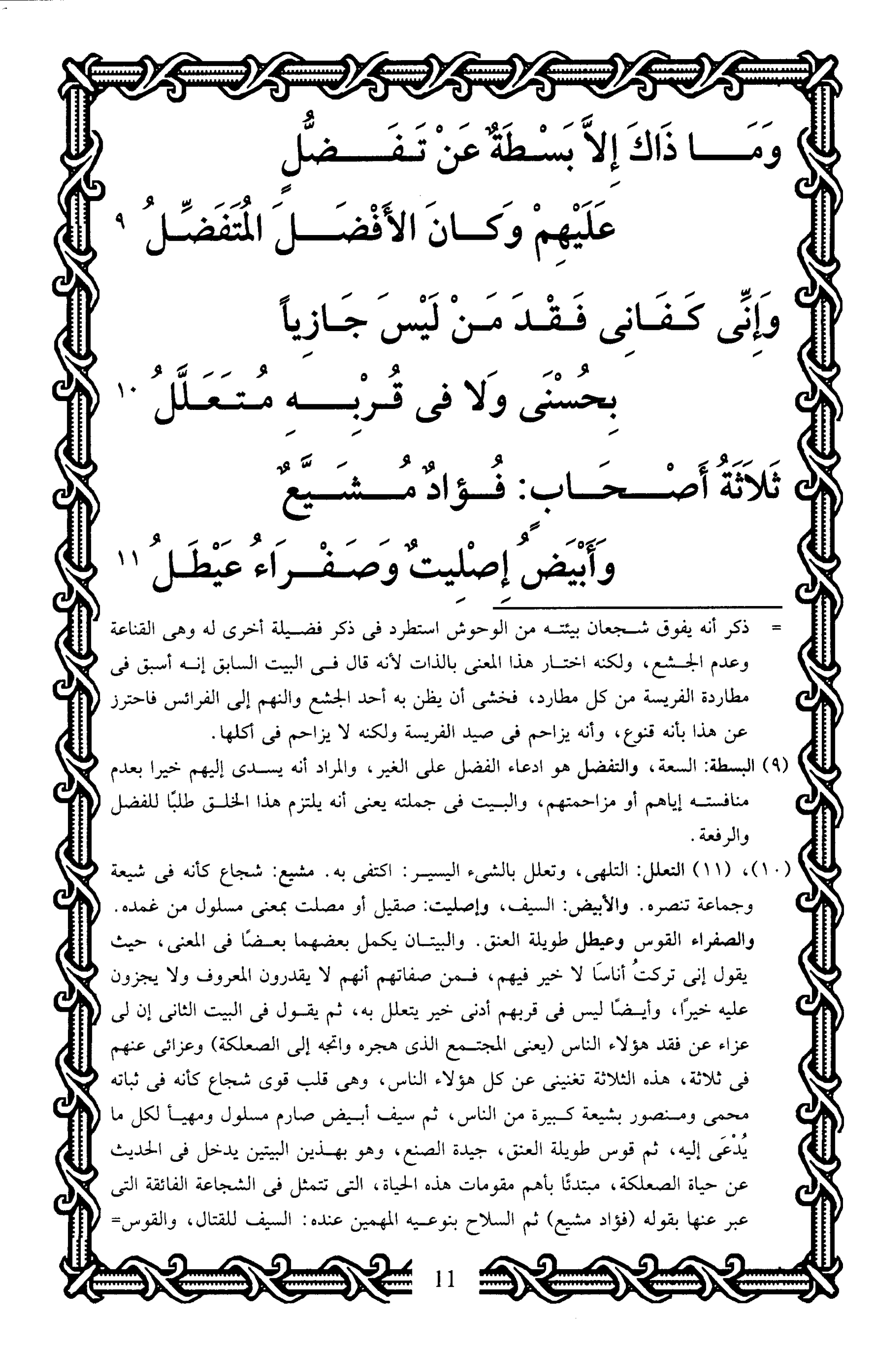
وَإِنْ مُدَّتِ الأَيْدى إلى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَلُ ٨

= عرفاء. والمراد قد اخترت مجتمعاً غيركم وغير الناس جميعاً كله من الوحوش، ودونكم يعنى غيركم.

(٦) **ذائع**: منتشر. **وجر جريرة**: جنى جناية. **وخذله** إذا تخلى عن نصرته. وهو يوازن بين مجتمع الناس الذى هجره ومجتمع الوحوش الذى يعايشه فى الصعلكة، فيقول عن الوحوش هم الأهل، بأسلوب القصر، يعنى الأهل الحقيقيين ولا أهل غيرهم، ثم يتحدث عن فضائل مجتمع الوحوش وما يمتاز به عن الآدميين، وأولى فضائله أنه لا يذيع سرًا عنده، وثانيهما أنه لا يخذل بعضه بعضًا حتى فى أحرج المواقف، ومعنى ذلك أن أولى رذائل المجتمع الآدمى عند الشنفرى عدم الأمانة كإذاعة ما يؤتمن عليه أحدهم من سر، ثم الرذيلة التى تليها قريبة من الخيانة أيضًا؛ حين يخذل الصديق صديقه أو القريب قريبه، وهذا نوع من خيانة الصلة والرابطة.

(٧) **الأبى**: الذى يأبى الذل والظلم، **والباسل**: الشجاع البطل، **والطرائد** جمع طريدة وهى الفريسة التى تطارد. **وكلٌّ أبى** يعنى الوحوش التى سبق حديثه عنها، يصفها بالشجاعة، ثم يقارن بين نفسه وهذه الوحوش، فيقول إنه مع الشجاعة الفائقة لهذه الوحوش إلا أننى أبسل منها فى مطاردة الفرائس. والزمخشرى يفسر **الطرائد** بالفرسان، على معنى أن الشنفرى يقارن بين شجاعته وشجاعة فرسان مطاردين للصيد، وهو تفسير غير دقيق. والواقع أن السياق يرجح الموازنة بينه وبين الوحوش وجه الموازنة فى مطاردة الفريسة لأنها الهدف المشترك بينه وبين الوحوش.

(٨) **الجشع**: النهم وشدة الحرص، وهذا البيت استطراد منه فى ذكر بعض فضائله، فبعد أن =



وَمَــا ذَاكَ إلاَّ بَسْطَةٌ عَنْ تَفَــضُّلِ
عَلَيْهِمْ وكَــانَ الأَفْضَــلَ المُتَفَضِّـلُ [٩]

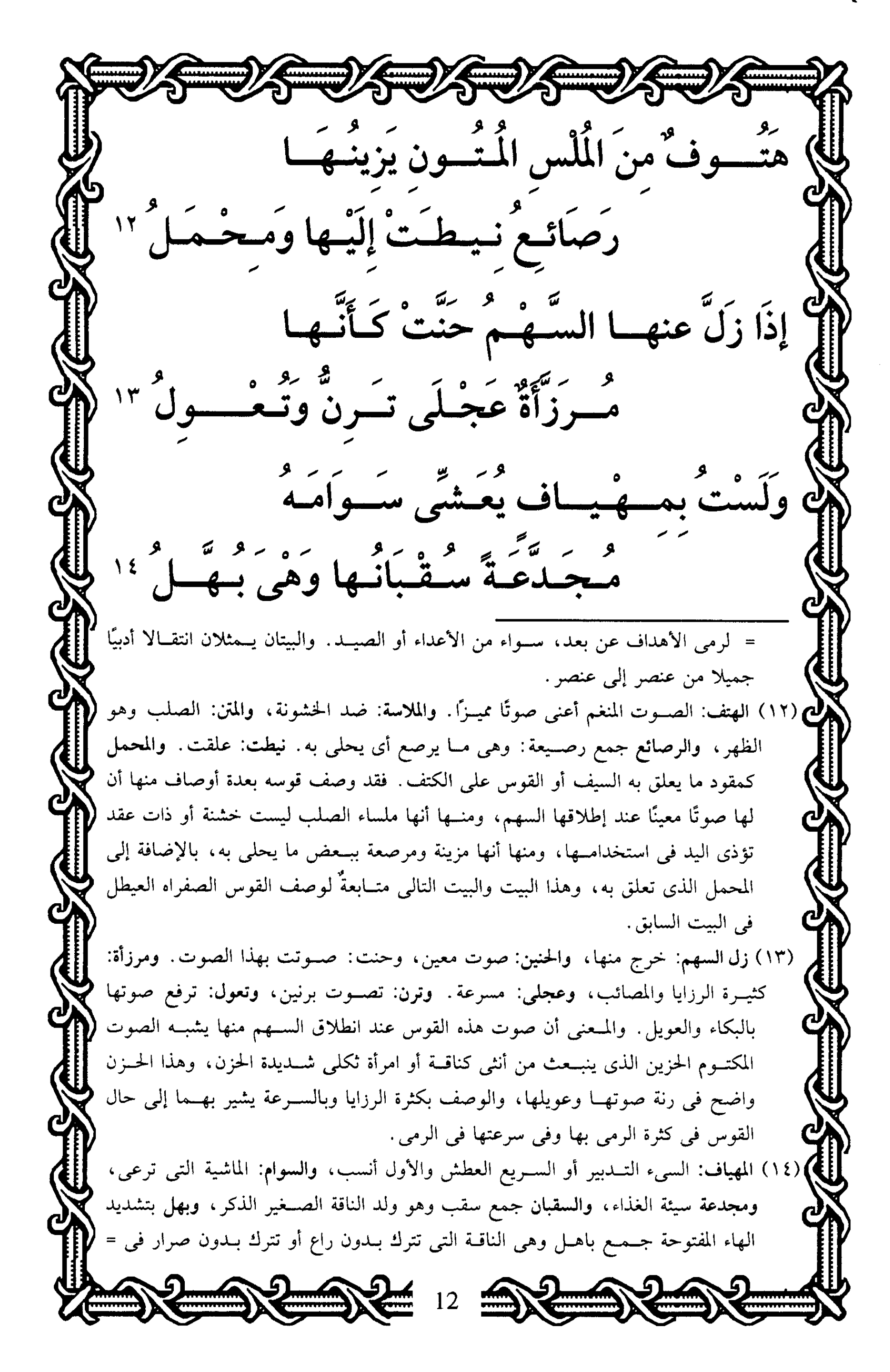
وَإِنِّى كَفَانِى فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جَازِياً
بِحُسْنَى وَلا فى قُرْبِــهِ مُتَعَلَّلُ [١٠]

ثَلاَثَةُ أَصْــحَــابٍ: فُـؤادٌ مُــشَيَّعٌ
وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ [١١]

= ذكر أنه يفوق شجعان بيئته من الوحوش استطرد فى ذكر فضيلة أخرى له وهى القناعة وعدم الجشع، ولكنه اختار هذا المعنى بالذات لأنه قال فى البيت السابق إنه أسبق فى مطاردة الفريسة من كل مطارد، فخشى أن يظن به أحد الجشع والنهم إلى الفرائس فاحترز عن هذا بأنه قنوع، وأنه يزاحم فى صيد الفريسة ولكنه لا يزاحم فى أكلها.

(٩) **البسطة**: السعة، **والتفضل** هو ادعاء الفضل على الغير، والمراد أنه يسدى إليهم خيرا بعدم منافسته إياهم أو مزاحمتهم، والبيت فى جملته يعنى أنه يلتزم هذا الخلق طلبًا للفضل والرفعة.

(١٠)، (١١) **التعلل**: التلهى، وتعلل بالشىء اليسير: اكتفى به. مشيع: شجاع كأنه فى شيعة وجماعة تنصره. **والأبيض**: السيف، **وإصليت**: صقيل أو مصلت بمعنى مسلول من غمده. **والصفراء** القوس **وعيطل** طويلة العنق. والبيتان يكمل بعضهما بعضًا فى المعنى، حيث يقول إنى تركتُ أناسًا لا خير فيهم، فمن صفاتهم أنهم لا يقدرون المعروف ولا يجزون عليه خيرًا، وأيضًا ليس فى قربهم أدنى خير يتعلل به، ثم يقول فى البيت الثانى إن لى عزاء عن فقد هؤلاء الناس (يعنى المجتمع الذى هجره واتجه إلى الصعلكة) وعزائى عنهم فى ثلاثة، هذه الثلاثة تغنينى عن كل هؤلاء الناس، وهى قلب قوى شجاع كأنه فى ثباته محمى ومنصور بشيعة كبيرة من الناس، ثم سيف أبيض صارم مسلول ومهيأ لكل ما يُدْعَى إليه، ثم قوس طويلة العنق، جيدة الصنع، وهو بهذين البيتين يدخل فى الحديث عن حياة الصعلكة، مبتدئًا بأهم مقومات هذه الحياة، التى تتمثل فى الشجاعة الفائقة التى عبر عنها بقوله (فؤاد مشيع) ثم السلاح بنوعيه المهمين عنده: السيف للقتال، والقوس=



هَتُــوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُــونِ يَزِينُـهَــا

رَصَائِعُ نِيطَتْ إِلَيْها وَمِحْمَلُ [١٢]

إِذَا زَلَّ عنهــا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّـهـا

مُــرَزَّأَةٌ عَجْلَى تَــرِنُّ وَتُعْــوِلُ [١٣]

وَلَسْتُ بِمِــهْيَــافٍ يُعَشِّى سَــوَامَهُ

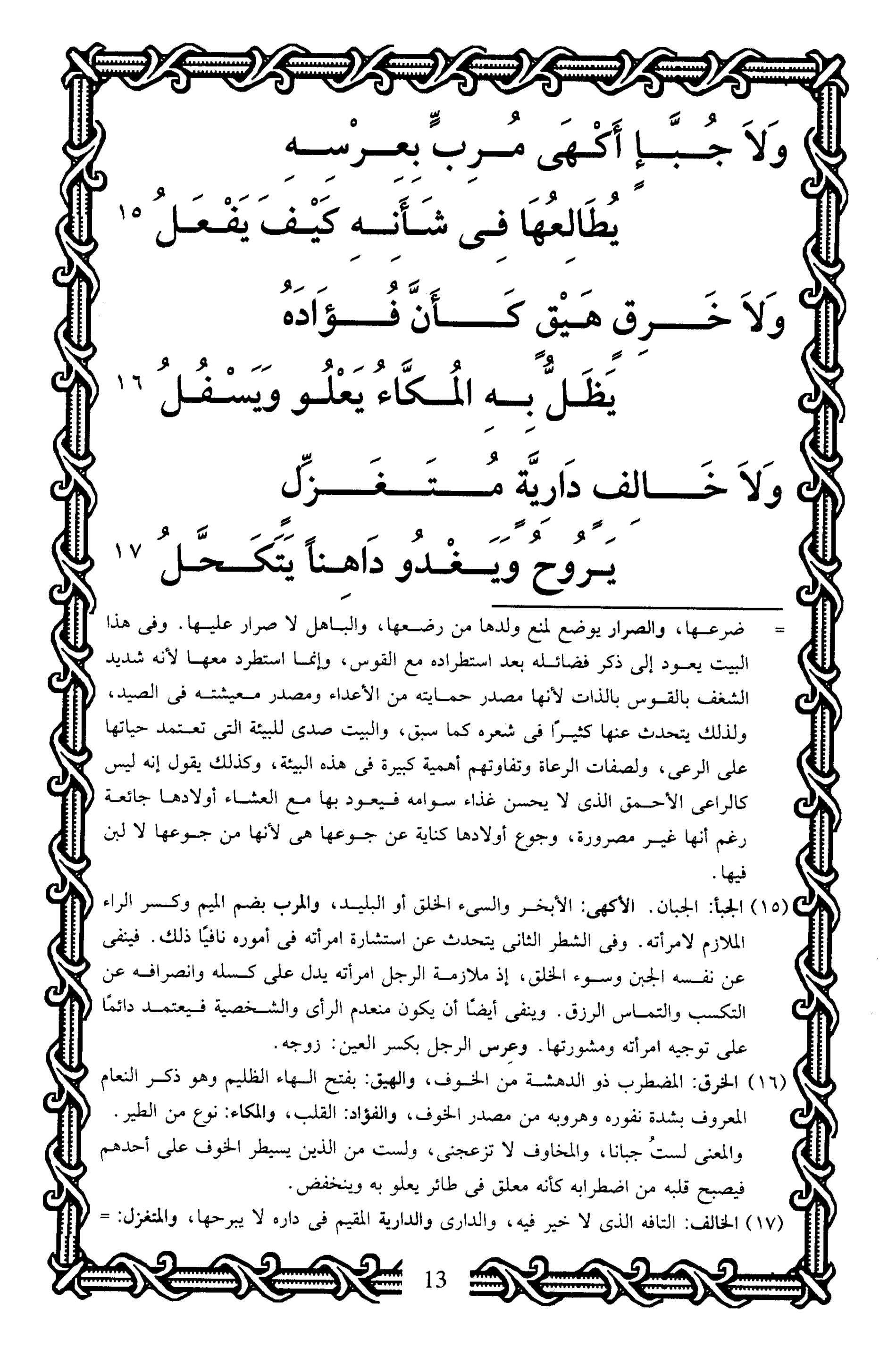
مُجَدَّعَةً سُقْبَانُـها وَهْىَ بُهَّـلُ [١٤]

= لرمى الأهداف عن بعد، سـواء من الأعداء أو الصيـد. والبيتان يـمثلان انتقـالا أدبيًا جميلا من عنصر إلى عنصر.

(١٢) **الهتف**: الصـوت المنغم أعنى صوتًا مميـزًا. **والملاسة**: ضد الخشونة، **والمتن**: الصلب وهو الظهر، **والرصائع** جمع رصـيعة: وهى مـا يرصع أى يحلى به. **نيطت**: علقت. **والمحمل** كمقود ما يعلق به السيف أو القوس على الكتف. فقد وصف قوسه بعدة أوصاف منها أن لها صوتًا معينًا عند إطلاقها السهم، ومنـها أنها ملساء الصلب ليست خشنة أو ذات عقد تؤذى اليد فى استخدامـها، ومنها أنها مزينة ومرصعة ببـعض ما يحلى به، بالإضافة إلى المحمل الذى تعلق به، وهذا البيت والبيت التالى متـابعةٌ لوصف القوس الصفراء العيطل فى البيت السابق.

(١٣) **زل السهم**: خرج منها، **والحنين**: صوت معين، وحنت: صـوتت بهذا الصوت. **ومرزأة**: كثيـرة الرزايا والمصائب، **وعجلى**: مسرعة. **وترن**: تصـوت برنين، **وتعول**: ترفع صوتها بالبكاء والعويل. والمـعنى أن صوت هذه القوس عند انطلاق السـهم منها يشبـه الصوت المكتـوم الحزين الذى ينبـعث من أنثى كناقـة أو امرأة ثكلى شـديدة الحزن، وهذا الحـزن واضح فى رنة صوتهـا وعويلها، والوصف بكثرة الرزايا وبالسـرعة يشير بهـما إلى حال القوس فى كثرة الرمى بها وفى سرعتها فى الرمى.

(١٤) **المهياف**: السىء التـدبير أو السـريع العطش والأول أنسب، **والسوام**: الماشية التى ترعى، **ومجدعة** سيئة الغذاء، **والسقبان** جمع سقب وهو ولد الناقة الصـغير الذكر، **وبهل** بتشديد الهاء المفتوحة جـمـع باهـل وهى الناقـة التى تترك بـدون راع أو تترك بـدون صرار فى =



وَلاَ جُبَّــاٍ أَكْهَى مُــرِبٍّ بِعِــرْسِــهِ
يُطَالِعُهَا فِـى شَـأْنِــهِ كَيْـفَ يَفْـعَـلُ [١٥]

وَلاَ خَــــرِقٍ هَـيْقٍ كَــــأَنَّ فُــــؤَادَهُ
يَظَـلُّ بِــهِ الْمُـكَّاءُ يَعْلُـو وَيَسْـفُـلُ [١٦]

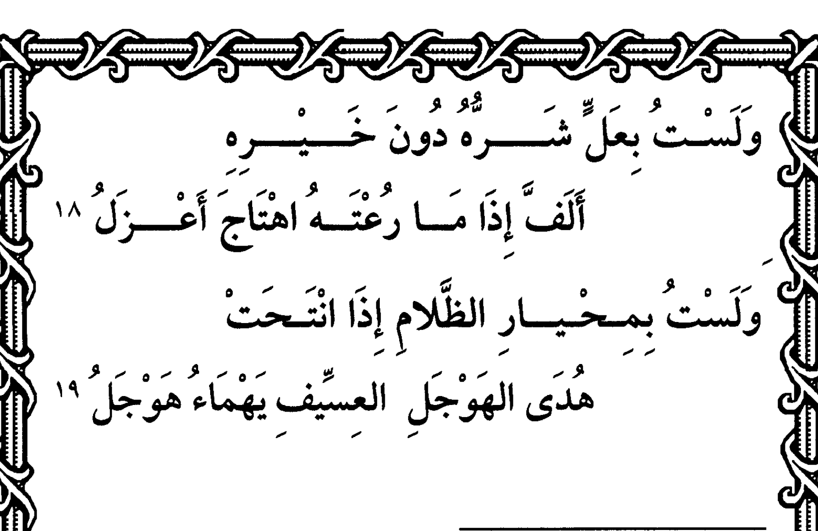
وَلاَ خَـــالِفٍ دَارِيَّةٍ مُــتَـــغَـــزِّلٍ
يَـرُوحُ وَيَــغْـدُو دَاهِـناً يَتَكَـحَّـلُ [١٧]

= ضرعـها، والصرار يوضع لمنع ولدها من رضـعها، والبـاهل لا صرار عليـها. وفى هذا البيت يعـود إلى ذكر فضائـله بعد استطراده مع القوس، وإنمـا استطرد معهـا لأنه شديد الشغف بالقـوس بالذات لأنها مصدر حمـايته من الأعداء ومصدر مـعيشتـه فى الصيد، ولذلك يتحدث عنها كثيـرًا فى شعره كما سبق، والبيت صدى للبيئة التى تعـتمد حياتها على الرعى، ولصفات الرعاة وتفاوتهم أهمية كبيرة فى هذه البيئة، وكذلك يقول إنه ليس كالراعى الأحـمق الذى لا يحسن غذاء سـوامه فـيعـود بها مـع العشـاء أولادهـا جائعة رغم أنها غيـر مصرورة، وجوع أولادها كناية عن جـوعها هى لأنها من جـوعها لا لبن فيها.

(١٥) **الجبأ**: الجبان. **الأكهى**: الأبخـر والسىء الخلق أو البليـد، **والمرب** بضم الميم وكـسر الراء الملازم لامرأته. وفى الشطر الثانى يتحدث عن استشارة امرأته فى أموره نافيًا ذلك. فينفى عن نفـسه الجبن وسـوء الخلق، إذ ملازمـة الرجل امرأته يدل على كـسله وانصرافـه عن التكسب والتمـاس الرزق. وينفى أيضًا أن يكون منعدم الرأى والشـخصية فـيعتمـد دائمًا على توجيه امرأته ومشورتها. **وعِرس** الرجل بكسر العين: زوجه.

(١٦) **الخرق**: المضطرب ذو الدهشـة من الخـوف، **والهيق**: بفتح الـهاء الظليم وهو ذكـر النعام المعروف بشدة نفوره وهروبه من مصدر الخوف، **والفؤاد**: القلب، **والمكاء**: نوع من الطير. والمعنى لستُ جبانا، والمخاوف لا تزعجنى، ولست من الذين يسيطر الخوف على أحدهم فيصبح قلبه من اضطرابه كأنه معلق فى طائر يعلو به وينخفض.

(١٧) **الخالف**: التافه الذى لا خير فيه، والدارى **والدارية** المقيم فى داره لا يبرحها، **والمتغزل**: =



وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَــرُّهُ دُونَ خَــيْــرِه
أَلَفَّ إِذَا مَــا رُعْتَــهُ اهْتَاجَ أَعْــزَلُ [١٨]

وَلَسْتُ بِمِـحْـيَــارِ الظَّلامِ إِذَا انْتَـحَتْ
هُدَى الهَوْجَلِ العِسِّيفِ يَهْمَاءُ هَوْجَلُ [١٩]

= المتفرغ لمغازلة النساء، **والرواح** عكس الصباح من الظهر إلى الليل، **والغدو**: من الصباح إلى الظهر. **والداهن** الذى يتزين بدهن نفسه، **والمتكحل** الذى يكحل عينيه. ينفى عن نفسه صفات المخنثين التى تتمثل فى هذه المظاهر من عدم مزاولة العمل، والتفرغ لمغازلة النساء والتشبه بهن فى الادهان والتكحل ونحو ذلك.

(١٨) **العل** بفتح العين: القراد وهو حشرة صغيرة مثل البق، ومن الرجال: الضئيل الضعيف، **شره دون خيره** بمعنى أقرب من خيره، **وألف** بفتح اللام: الضعيف الذى لا خير فيه لشىء، **والروع** الفزع، **واهتاج** يعنى خاف وفزع، **والأعزل**: الذى لا سلاح معه، ينفى عن نفسه التفاهة والضعف والسلبية، ويثبت لها ضمنًا عكس هذه الصفات.

(١٩) **المحيار** المتحير الضال، **وانتحت**: اعترضت وأفسدت، **والهدى** الهداية والمراد هداية الطريق فى الصحراء، **والهوجل**: الرجل الأحمق، **والعسيف** الضال عن الطريق، **ويهماء** صحراء، **وهوجل الثانية** مقفرة لا معالم فيها للاهتداء، وهو وصف للصحراء، ويهماء فاعل انتحت، والمعنى لست متحيرًا حتى فى الظلام، وحتى فى الفلاة المقفرة التى تضل سالكها الأحمق الذى لا يحسن معرفة المسالك، وأصل التركيب لست بمحيار الظلام إذا انتحت يهماء هوجل هدى الهوجل العسيف، وهذا البيت بداية حقيقية لوصف واقع حياته فى الصعلكة، وما يتعرض له من مخاطر، وما يلزمه لمقاومة هذه المخاطر، وأول المخاطر احتمال أن يضل فى الصحراء التى لا حدود لها ولا معالم فيها وخاصة فى الظلام الذى يزاول فيه نشاطه فى قطع الطريق وغاراته على أعدائه. فيقول إنه واثق من خبرته بالصحراء واهتدائه حتى فى ظلامها، بينما يحار آخرون فى هذه الفلوات التى لا معالم فيها. ثم يأخذ فى الأبيات التالية فى وصف حياته هذه ومشاهد منها وأنواع مما يقاسيه ويعانيه ويتغلب عليه.

إِذَا الأمْعَزُ الصَّوَّانُ لاَقَى مَنَاسِمِى
تَطَايَرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُفَلَّلُ [٢٠]

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ
وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ [٢١]

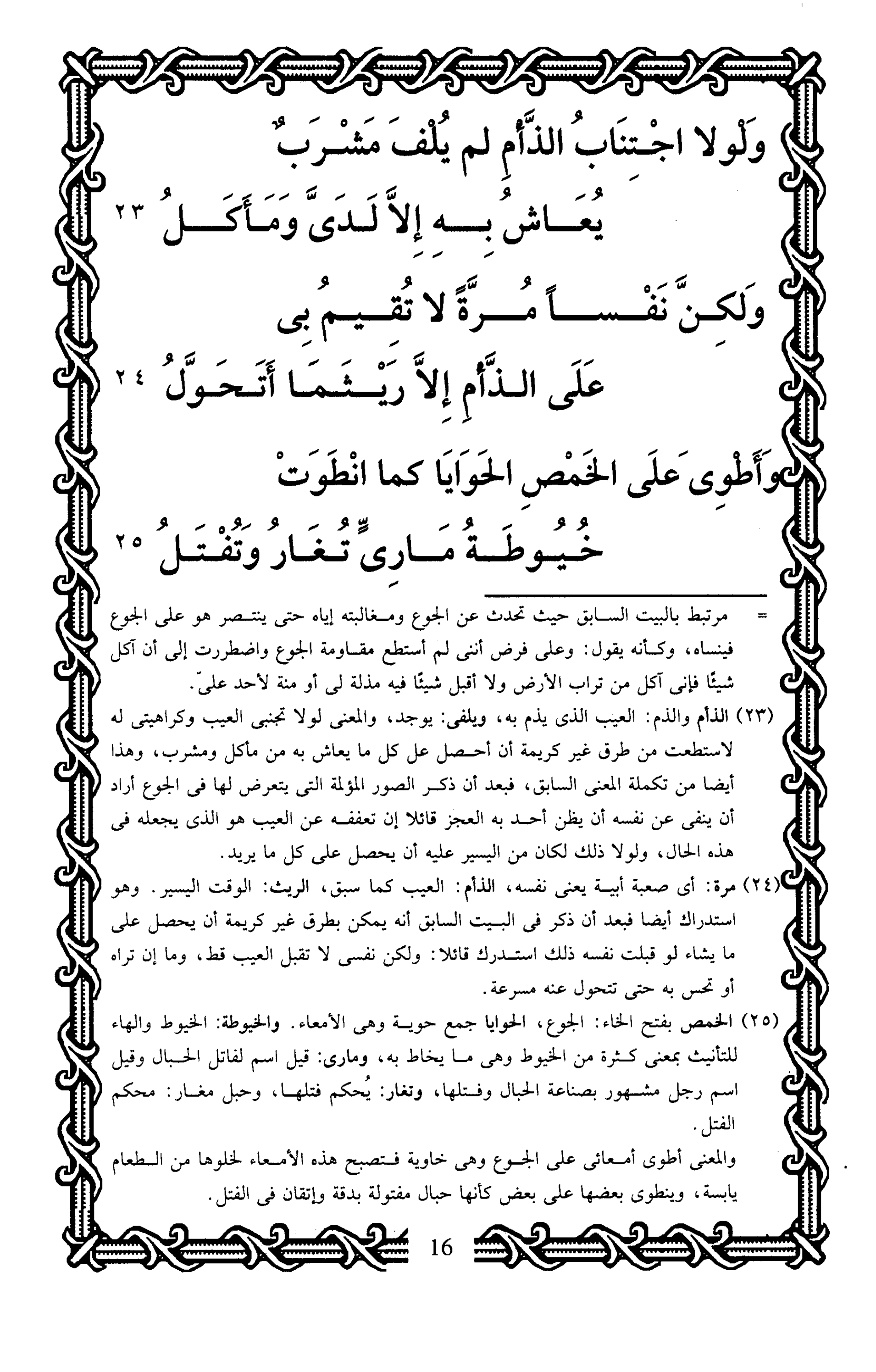
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يَرَى لَهُ
عَلَىَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُءٌ مُتَطَوِّلُ [٢٢]

---

(٢٠) **الأمعز**: المكان الصلب الكثير الحصى، **والصوان** الحجارة الملس، **والمنسم** خف البعير، شبه قدميه بأخفاف الإبل. **والقادح** الذى تخرج من قدحه النار، **والأمعز الصوان** يعنى المكان الذى فيه الصوان، **والمفلل**: المتكسر، والمعنى اننى حين أعدو تتطاير الحجارة الصغيرة من حول قدمى ويضرب بعضها فى حجارة أخرى فيتطاير منها شرر نار وتنكسر، ويلاحظ أنه جعل قدميه لا تلاقى الصوان وإنما تلاقى المكان نفسه وهو الأمعز مبالغة فى أن سرعة جريه تجعل الأماكن لا قيمة لاتساعها فكأن قدميه تلاقى هذا الوادى مثلا هذه اللحظة ثم الوادى الآخر بعد ذلك وكأن كل خطوة فى واد، ويلاحظ أيضًا أنه لم يتحدث عن إثبات سرعته فى العدو من حيث المبدأ لأنه أمر معروف ومسلم به، وإنما تحدث عن آثار سرعته فى العدو.

(٢١) **أديم**: من المداومة وهى الاستمرار، **والمطال** بكسر الميم: المماطلة، **وأضربت عن كذا صفحًا**: أعرضت عنه، **وذهل عن الشىء**: نسيه. وفى هذا البيت يتحدث عن صورة أخرى من متاعب حياة الصعلكة، وهى التعرض كثيرًا للجوع الشديد ويبين طريقته فى مغالبة الجوع، وهى أنه يتناساه ويتجاهله ويماطله حتى ييأس الجوع فيذهب عنه وكأنه غير جائع وبهذا يكون الجوع كأنه مات؛ ففى الشطر الأول يتحدث عن انصراف الجوع عنه، وفى الشطر الثانى يتحدث عن انتصاره هو على الجوع حتى ينساه. ومثل هذا التصوير واضح الدلالة على الصدق فى التعبير عن واقع يعانيه صاحبه.

(٢٢) **الطول**: المن، **والمتطول**: النعمة التى يمن بها صاحبها على غيره، والمعنى أنه يفضل أن يستف تراب الأرض على أن يمد أحد إليه يده بفضل أو نعمة يمن بها عليه، وهو =



وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ
يُعَاشُ بِهِ إلاَّ لَدَىَّ وَمَأْكَلُ ٢٣

وَلكِنَّ نَفْساً مُرَّةً لا تُقِيمُ بِى
عَلَى الذَّأْمِ إلاَّ رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ ٢٤

وَأَطْوِى عَلَى الخَمْصِ الحَوَايَا كما انْطَوَتْ
خُيُوطَةُ مَارِىٍّ تُغَارُ وَتُفْتَلُ ٢٥

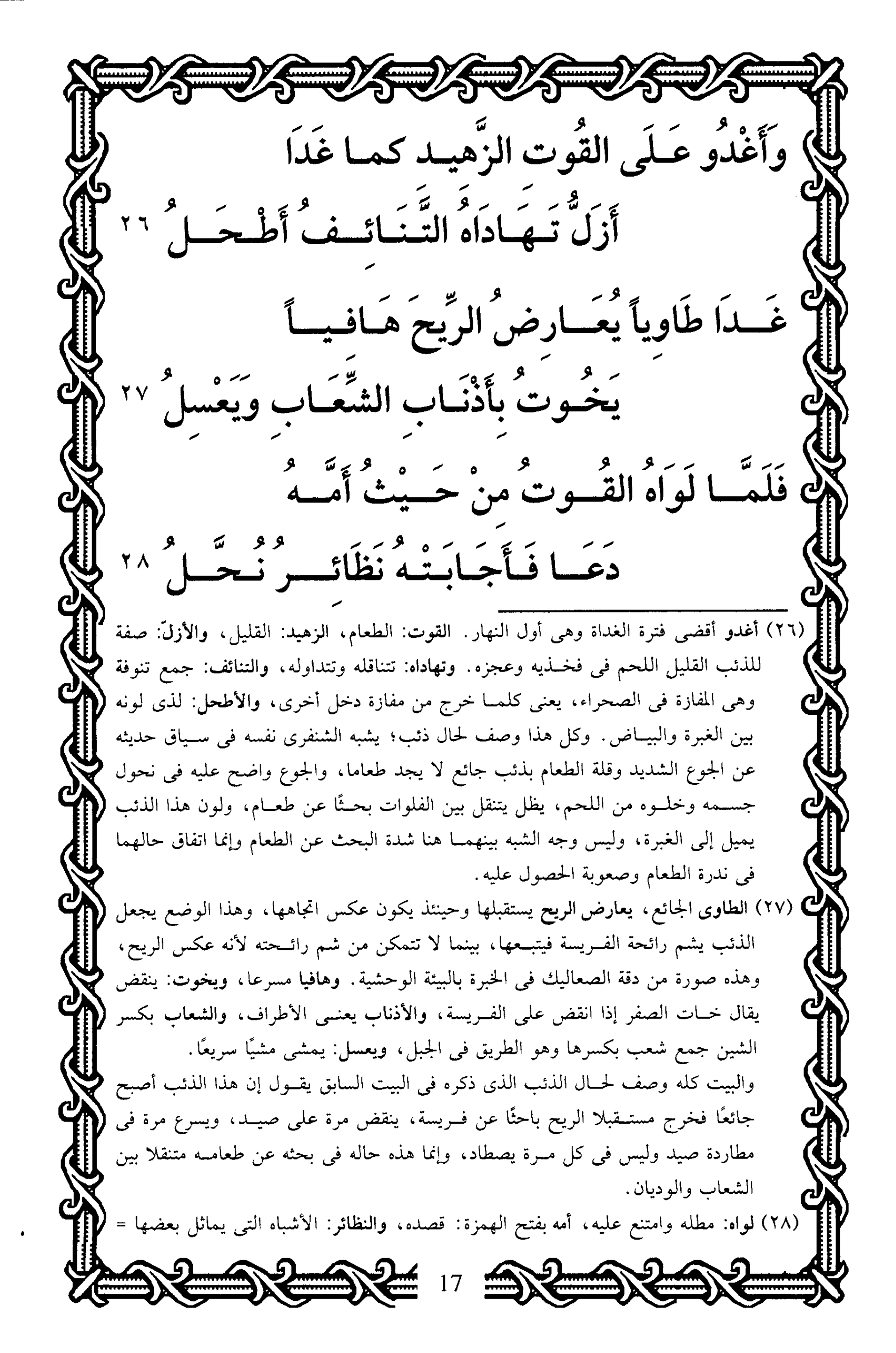
= مرتبط بالبيت السابق حيث تحدث عن الجوع ومغالبته إياه حتى ينتصر هو على الجوع فينساه، وكأنه يقول: وعلى فرض أننى لم أستطع مقاومة الجوع واضطررت إلى أن آكل شيئًا فإنى آكل من تراب الأرض ولا أقبل شيئًا فيه مذلة لى أو منة لأحد علىّ.

(٢٣) **الذأم والذم**: العيب الذى يذم به، **ويلفى**: يوجد، والمعنى لولا تجنبى العيب وكراهيتى له لاستطعت من طرق غير كريمة أن أحصل عل كل ما يعاش به من مأكل ومشرب، وهذا أيضا من تكملة المعنى السابق، فبعد أن ذكر الصور المؤلمة التى يتعرض لها فى الجوع أراد أن ينفى عن نفسه أن يظن أحد به العجز قائلا إن تعففه عن العيب هو الذى يجعله فى هذه الحال، ولولا ذلك لكان من اليسير عليه أن يحصل على كل ما يريد.

(٢٤) **مرة**: أى صعبة أبية يعنى نفسه، **الذأم**: العيب كما سبق، **الريث**: الوقت اليسير. وهو استدراك أيضا فبعد أن ذكر فى البيت السابق أنه يمكن بطرق غير كريمة أن يحصل على ما يشاء لو قبلت نفسه ذلك استدرك قائلا: ولكن نفسى لا تقبل العيب قط، وما إن تراه أو تحس به حتى تتحول عنه مسرعة.

(٢٥) **الخمص** بفتح الخاء: الجوع، **الحوايا** جمع حوية وهى الأمعاء. **والخيوطة**: الخيوط والهاء للتأنيث بمعنى كثرة من الخيوط وهى ما يخاط به، **ومارى**: قيل اسم لفاتل الحبال وقيل اسم رجل مشهور بصناعة الحبال وفتلها، **وتغار**: يُحكم فتلها، وحبل مغار: محكم الفتل.

والمعنى أطوى أمعائى على الجوع وهى خاوية فتصبح هذه الأمعاء لخلوها من الطعام يابسة، وينطوى بعضها على بعض كأنها حبال مفتولة بدقة وإتقان فى الفتل.



وَأَغْدُو عَلَى القُوتِ الزَّهِيدِ كما غَدَا
أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ [٢٦]

غَدَا طَاوِياً يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِياً
يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشِّعَابِ وَيَعْسِلُ [٢٧]

فَلَمَّا لَوَاهُ القُوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ
دَعَا فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نُحَّلُ [٢٨]

---

(٢٦) **أغدو** أقضى فترة الغداة وهى أول النهار. **القوت**: الطعام، **الزهيد**: القليل، **والأزلّ**: صفة للذئب القليل اللحم فى فخذيه وعجزه. **وتهاداه**: تتناقله وتتداوله، **والتنائف**: جمع تنوفة وهى المفازة فى الصحراء، يعنى كلما خرج من مفازة دخل أخرى، **والأطحل**: لذى لونه بين الغبرة والبياض. وكل هذا وصف لحال ذئب؛ يشبه الشنفرى نفسه فى سياق حديثه عن الجوع الشديد وقلة الطعام بذئب جائع لا يجد طعاما، والجوع واضح عليه فى نحول جسمه وخلوه من اللحم، يظل يتنقل بين الفلوات بحثًا عن طعام، ولون هذا الذئب يميل إلى الغبرة، وليس وجه الشبه بينهما هنا شدة البحث عن الطعام وإنما اتفاق حالهما فى ندرة الطعام وصعوبة الحصول عليه.

(٢٧) **الطاوى** الجائع، **يعارض الريح** يستقبلها وحينئذ يكون عكس اتجاهها، وهذا الوضع يجعل الذئب يشم رائحة الفريسة فيتبعها، بينما لا تتمكن من شم رائحته لأنه عكس الريح، وهذه صورة من دقة الصعاليك فى الخبرة بالبيئة الوحشية. **وهافيا** مسرعا، **ويخوت**: ينقض يقال خات الصفر إذا انقض على الفريسة، **والأذناب** يعنى الأطراف، **والشعاب** بكسر الشين جمع شعب بكسرها وهو الطريق فى الجبل، **ويعسل**: يمشى مشيًا سريعًا.
والبيت كله وصف لحال الذئب الذى ذكره فى البيت السابق يقول إن هذا الذئب أصبح جائعًا فخرج مستقبلا الريح باحثًا عن فريسة، ينقض مرة على صيد، ويسرع مرة فى مطاردة صيد وليس فى كل مرة يصطاد، وإنما هذه حاله فى بحثه عن طعامه متنقلا بين الشعاب والوديان.

(٢٨) **لواه**: مطله وامتنع عليه، **أمه** بفتح الهمزة: قصده، **والنظائر**: الأشباه التى يماثل بعضها =

مُـهَلْهَـلَةٌ شِـيبُ الوُجُـوه كَـأَنَّهَـا
قِـدَاحٌ بِكَـفَّـىْ يَـاسِـرٍ تَتَقَـلْـقَـلُ ٢٩

أو الخَـشْـرَمُ المَبْـعـوثُ حَـثْـحَثَ دَبْرَهُ
مَحَابِيضُ أرْدَاهُـنَّ سَـامٍ مُـعَسِّـلُ ٣٠

= بعضًا ومفرده قياسا نظيره ولكن الشاعر يقصد النظير بالتذكير، **ونحل** جمع ناحل وهو الهزيل الضامر، وفعله نحل بفتح الحاء أو كسرها. وهو متابعة لوصف الذئب الجائع الباحث عن طعامه. يقول هنا إن هذا الذئب بعد أن تعب من البحث عن الطعام ولم يجده فى الأماكن التى توقع وجوده فيها، لم يجد غير أن يستغيث ويصرخ وقد أجابته عشيرته من الذئاب، فإذا حالها جميعًا كحاله جائعة وضامرة هزيلة من الجوع المتكرر وشبه الدائم.

(٢٩) **مهلهلة**: قليلة اللحم وهو وصف لنظائر فى البيت السابق، **وشيب** جمع أشيب وشيباء. **والقداح** جمع قدح بكسر القاف وهو السهم قبل بريه وتركيب نصله، والقداح أداة القمار عند العرب، **والياسر** المقامر الذى يضرب القداح. **وتتقلقل**: تتحرك وتضطرب. والبيت متابعة أيضًا للمعنى السابق وهو وصف الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام . فيصفها هنا بالنحول من آثار الجوع وبياض شعر الوجوه وهو وصف خلقى أى أنه صورة لون من ألوان وجوه الذئاب، ثم يصف هذه الذئاب فى عدم انتظام حركتها وفى اضطرابها بسهام المقامرة التى كانت شائعة آنذاك فى المجتمع. والأبيات الأربعة السابقة تمثل صورةً أدبية كأنها لوحة مجسمة، تبدو فيها صورة الذئب الجائع الباحث عن طعامه فى منظر وبيئة محددة التصوير بصفات معينة، وحتى المناخ يبدو فى الصورة ممثلا فى رياح شديدة تفرض السكون على الأحياء ولكن شدة الجوع فرضت على هذا الذئب وعلى نظائره التى تظهر فى الصورة أيضا أن يتحملوا هذا المناخ.

(٣٠) **أو**: للعطف، والعطف إما على الذئب الأزل فى البيت الذى سبق قبل ثلاثة أبيات. والمعنى: أغدو على القوات الزهيد كما غدا أزل أو كالخشرم المبعوث، **والخشرم**: رئيس النحل، وحينئذ يصبح الحديث التالى عن النحل صورة مستقلة يشبه الشنفرى جانبا من حياته بها، وتكون الأبيات التالية عن النحل وأسلوب حياته، وقد اخترنا هذا المعنى فى بسطنا للصورة التالية عن النحل فى بحث سابق، وهذا أحدُ احتمالَى لعطف، وأما الاحتمال الثانى وقد أخذ به الزمخشرى فهو أن الخشرم معطوف على قداح فى البيت =

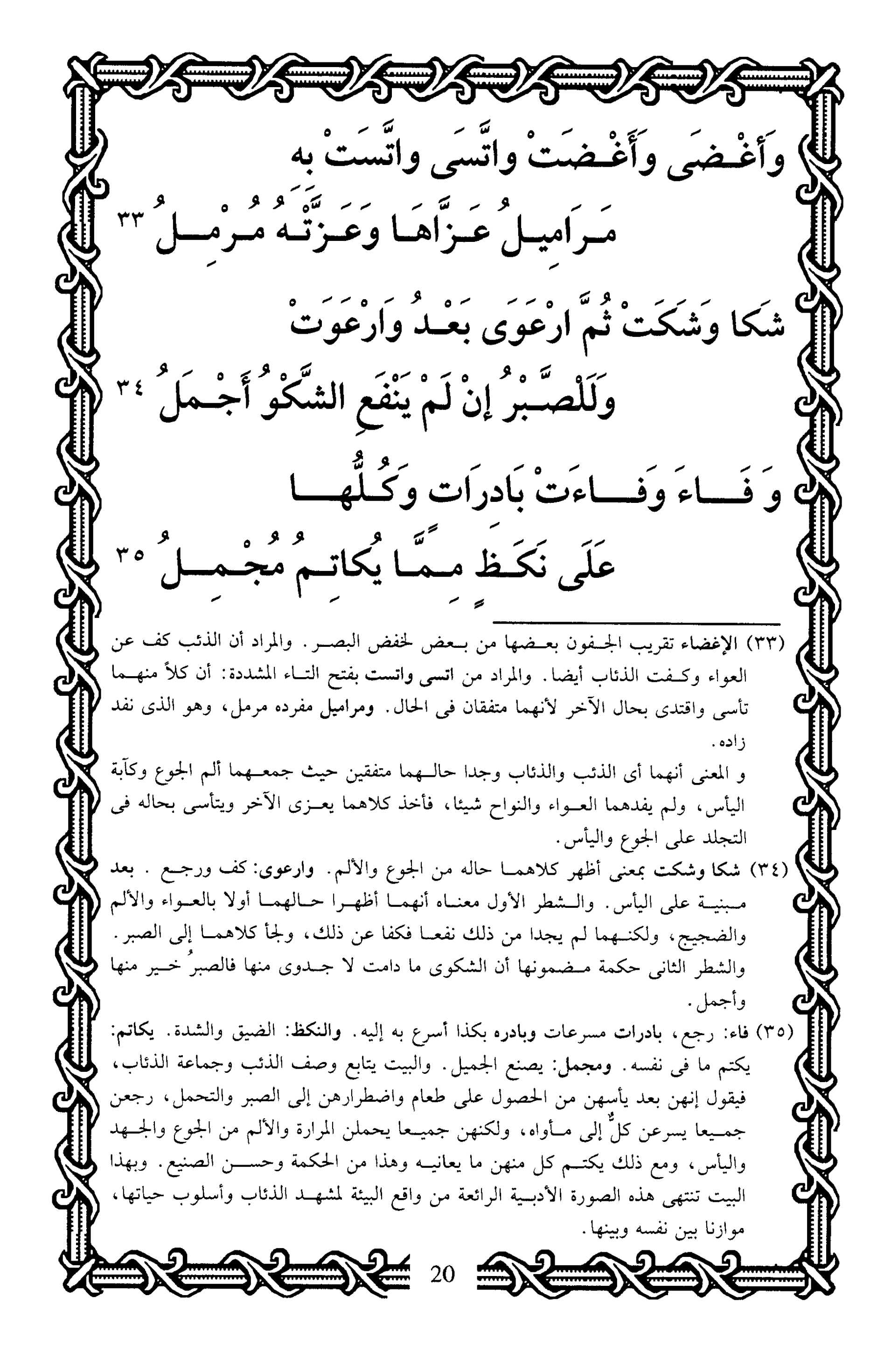
مُـهَـرَّتَةٌ فُـوهٌ كَـأنَّ شُـدُوقَـهَـا
شُـقُـوقُ العِـصِيِّ كالِحَاتٌ وَبُسَّـلُ ٣١

فَـضَجَّ وَضَـجَّتْ بالبَـرَاحِ كَـأنَّهـا
وَإيَّاهُ نُـوحٌ فَـوْقَ عَلْـيـاءَ ثُـكَّـلُ ٣٢

= السابق وهو غير قوى لغةً لعطفه معرفة على نكرة، ويترتب على هذا المعنى أن تكون الأبيات التالية للذئاب وليس للنحل، ولا مانع من هذا، بل سنختار هذا المعنى هنا زيادةً فى التماس ما توحى به اللامية من صور أدبية متعددة ومتنوعة. **والخشرم** رئيس النحل وهو ما يعرف الآن بملكة النحل. **والمبعوث** والمنبعث فى السير: المسرع، **وحثحث** حض وقاد، **والدبر**: جماعة النحل، **والمحابيض** عيدان جامع العسل، والأنسب للمعنى أن يكون المراد بها عيدان خلايا النحل التى تحوى العسل، **وأرداهن**: أهلكهن وحطمهن، **سام**: مرتفع عال، **ومعسل**: بكسر السين المشددة طالب العسل وجامعه، والمعنى على الاحتمال الثانى الذى اخترناه هنا أن الذئاب فى البيت السابق تشبه السهام فى يد المقامر أو تشبه رئيس النحل مع نحله، وقد عمد أحد طالبى العسل إلى خلاياهن فحطمها فى جمعه للعسل، فاضطرب النحل لهذا الموقف الذى يجعله بدون مأوى لأن بيوته هدمت، وبدون طعام لأن العسل طعامه المدخر فى بعض أوقات السنة.

(٣١) **المهرتة**: بفتح الراء المشددة: الواسعة الأشداق. **وفوه**: مفتوحة الفم وهى جمع مفرده أفوه للمذكر وفوهاء للمؤنث، **والشدوق** جمع شدق وهو جانب الفم، **كالحات** مكشرة فى عبوس، **وبسل**: كريهة المنظر، ومنه مقاتل باسل أى يكره الأعداء لقاءه. والشاعر بهذا المعنى يعود إلى وصف الذئاب التى تجمعت حول ذلك الذئب الجائع حين دعاه، فيصفها بأنها فاتحة أفواهها، وأن شدوقها واسعة كأنها الشقوق فى العصى، منظر وجوه هذه الذئاب كئيب عابس كريه. ويذكر المبرد أن الشنفرى تأثر فى هذا البيت ببيت لعلقمة الفحل المعاصر لامرئ القيس.

(٣٢) **ضج وضجت**: صاح الذئب وصاحت معه الذئاب المتجمعة. **والبراح**: الأرض الفضاء الواسعة. **كأنها**: أى الذئاب. **النوح**: النساء النوائح. **والعلياء** المكان العالى المرتفع. **والثكل** جمع النساء اللاتى فقدن أزواجهن أو أولادهن. والمعنى أن هذا الذئب عوى فجاوبته الذئاب من حوله بعواء مماثل، فأصبح هو والذئاب كأنهم فى مأتم تنوح فيه نساء ثكل فوق مرتفع من الأرض.



وَأَغْـضَى وَأَغْـضَتْ واتَّسَى واتَّسَتْ به
مَـرَاميـلُ عَـزَّاهَـا وَعَـزَّتْـهُ مُـرْمِـلُ ٣٣

شَكا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْـدُ وَارْعَوَتْ
وَلَلْصَّـبْرُ إنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْـمَلُ ٣٤

وَ فَــاءَ وَفَــاءَتْ بَادرَات وَكُـلُّهَــا
عَلَى نَكَـظٍ مِـمَّـا يُكاتِـمُ مُجْـمِـلُ ٣٥

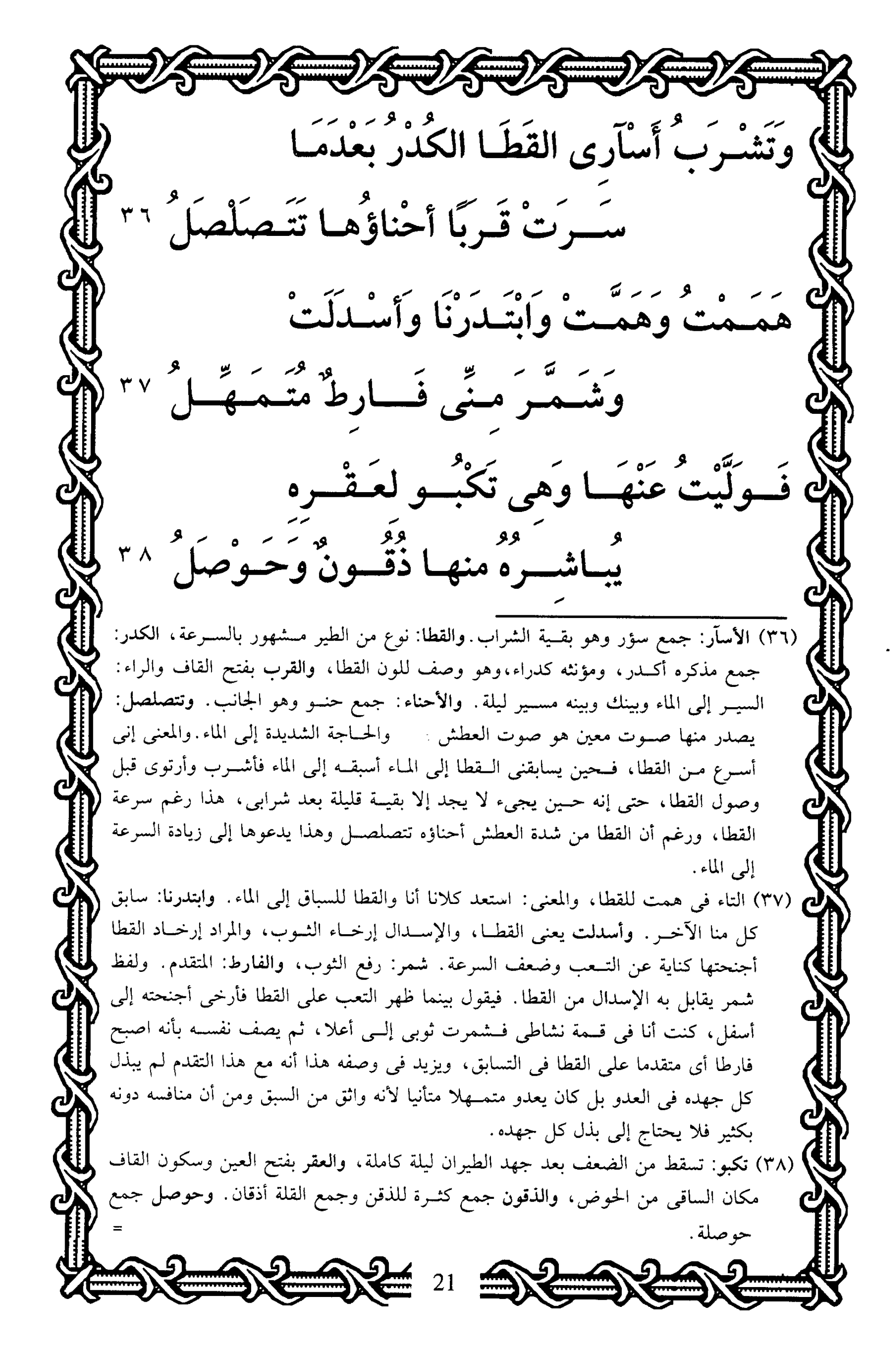
---

(٣٣) **الإغضاء** تقريب الجفون بعضها من بعض لخفض البصر. والمراد أن الذئب كف عن العواء وكفت الذئاب أيضا. والمراد من **اتسى واتست** بفتح التاء المشددة: أن كلاً منهما تأسى واقتدى بحال الآخر لأنهما متفقان فى الحال. **ومراميل** مفرده مرمل، وهو الذى نفد زاده.

و المعنى أنهما أى الذئب والذئاب وجدا حالهما متفقين حيث جمعهما ألم الجوع وكآبة اليأس، ولم يفدهما العواء والنواح شيئا، فأخذ كلاهما يعزى الآخر ويتأسى بحاله فى التجلد على الجوع واليأس.

(٣٤) **شكا وشكت** بمعنى أظهر كلاهما حاله من الجوع والألم. **وارعوى:** كف ورجع . **بعد** مبنية على اليأس. والشطر الأول معناه أنهما أظهرا حالهما أولا بالعواء والألم والضجيج، ولكنهما لم يجدا من ذلك نفعا فكفا عن ذلك، ولجأ كلاهما إلى الصبر. والشطر الثانى حكمة مضمونها أن الشكوى ما دامت لا جدوى منها فالصبرُ خير منها وأجمل.

(٣٥) **فاء:** رجع، **بادرات** مسرعات وبادره بكذا أسرع به إليه. **والنكظ:** الضيق والشدة. **يكاتم:** يكتم ما فى نفسه. **ومجمل:** يصنع الجميل. والبيت يتابع وصف الذئب وجماعة الذئاب، فيقول إنهن بعد يأسهن من الحصول على طعام واضطرارهن إلى الصبر والتحمل، رجعن جميعا يسرعن كلٌّ إلى مأواه، ولكنهن جميعا يحملن المرارة والألم من الجوع والجهد واليأس، ومع ذلك يكتم كل منهن ما يعانيه وهذا من الحكمة وحسن الصنيع. وبهذا البيت تنتهى هذه الصورة الأدبية الرائعة من واقع البيئة لمشهد الذئاب وأسلوب حياتها، موازنا بين نفسه وبينها.



وَتَشْرَبُ أَسْآرِى القَطَا الكُدْرُ بَعْدَمَا
سَرَتْ قَرَبًا أحْنَاؤُهَا تَتَصَلْصَلُ ٣٦

هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وَابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلَتْ
وَشَمَّرَ مِنِّى فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ ٣٧

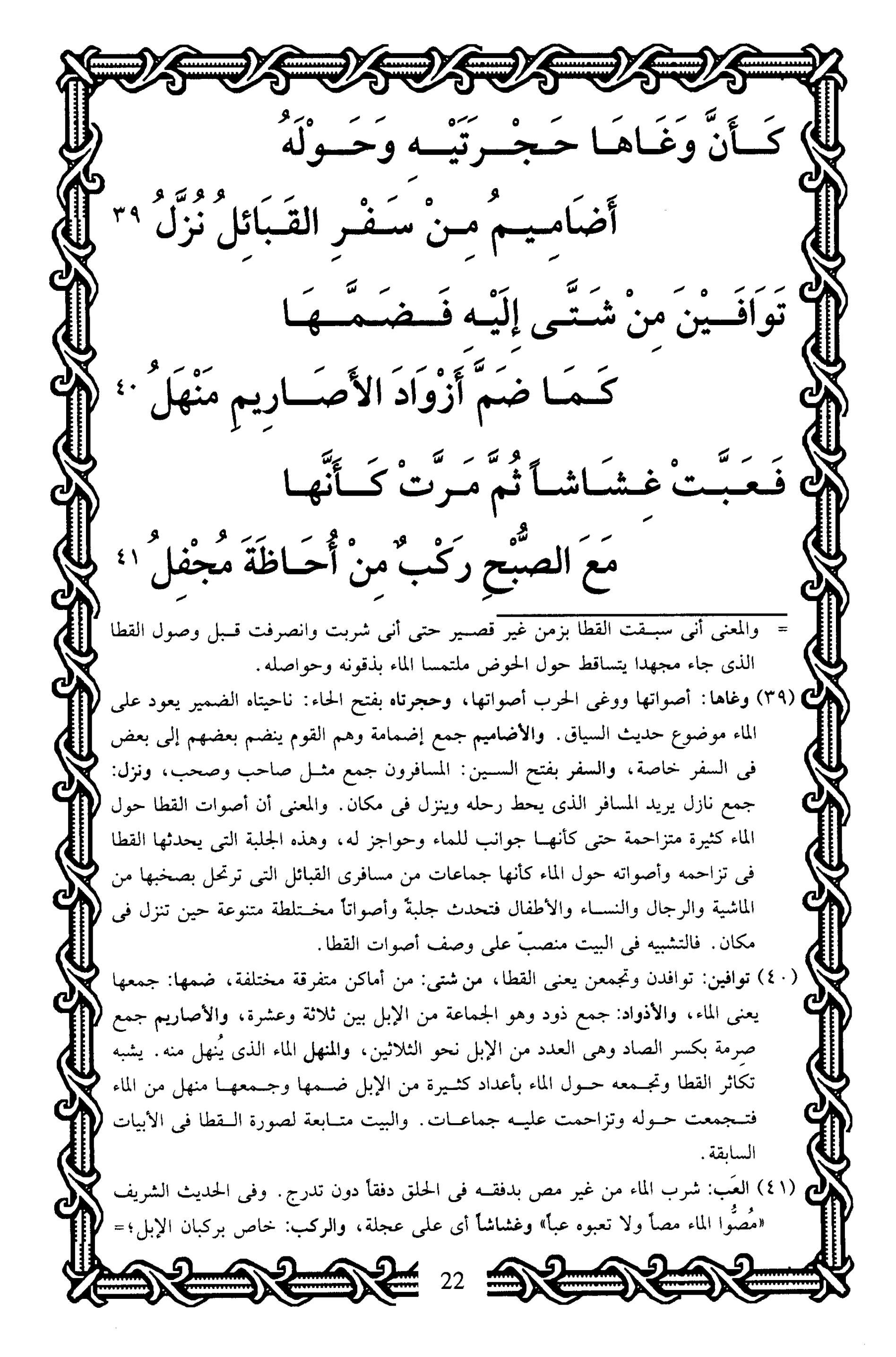
فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهِى تَكْبُو لِعَقْرِه
يُبَاشِرُهُ منها ذُقُونٌ وَحَوْصَلُ ٣٨

---

(٣٦) **الأسآر**: جمع سؤر وهو بقية الشراب. **والقطا**: نوع من الطير مشهور بالسرعة، **الكدر**: جمع مذكره أكدر، ومؤنثه كدراء، وهو وصف للون القطا، **والقرب** بفتح القاف والراء: السير إلى الماء وبينك وبينه مسير ليلة. **والأحناء**: جمع حنو وهو الجانب. **وتتصلصل**: يصدر منها صوت معين هو صوت العطش والحاجة الشديدة إلى الماء. والمعنى إنى أسرع من القطا، فحين يسابقنى القطا إلى الماء أسبقه إلى الماء فأشرب وأرتوى قبل وصول القطا، حتى إنه حين يجىء لا يجد إلا بقية قليلة بعد شرابى، هذا رغم سرعة القطا، ورغم أن القطا من شدة العطش أحناؤه تتصلصل وهذا يدعوها إلى زيادة السرعة إلى الماء.

(٣٧) التاء فى همت للقطا، والمعنى: استعد كلانا أنا والقطا للسباق إلى الماء. **وابتدرنا**: سابق كل منا الآخر. **وأسدلت** يعنى القطا، والإسدال إرخاء الثوب، والمراد إرخاد القطا أجنحتها كناية عن التعب وضعف السرعة. **شمر**: رفع الثوب، **والفارط**: المتقدم. ولفظ شمر يقابل به الإسدال من القطا. فيقول بينما ظهر التعب على القطا فأرخى أجنحته إلى أسفل، كنت أنا فى قمة نشاطى فشمرت ثوبى إلى أعلا، ثم يصف نفسه بأنه اصبح فارطا أى متقدما على القطا فى التسابق، ويزيد فى وصفه هذا أنه مع هذا التقدم لم يبذل كل جهده فى العدو بل كان يعدو متمهلا متأنيا لأنه واثق من السبق ومن أن منافسه دونه بكثير فلا يحتاج إلى بذل كل جهده.

(٣٨) **تكبو**: تسقط من الضعف بعد جهد الطيران ليلة كاملة، **والعقر** بفتح العين وسكون القاف مكان الساقى من الحوض، **والذقون** جمع كثرة للذقن وجمع القلة أذقان. **وحوصل** جمع حوصلة.
=



كَـأَنَّ وَغَـاهَـا حَـجْـرَتَيْـهِ وَحَـوْلَهُ
أَضَامِـيـمُ مِـنْ سَـفْـرِ القَـبَائِلُ نُزَّلُ [39]

تَوَافَـيْنَ مِنْ شَـتَّـى إِلَيْـهِ فَـضَـمَّـهَـا
كَـمَـا ضَمَّ أَزْوَادَ الأَصَـارِيمِ مَنْهَلُ [40]

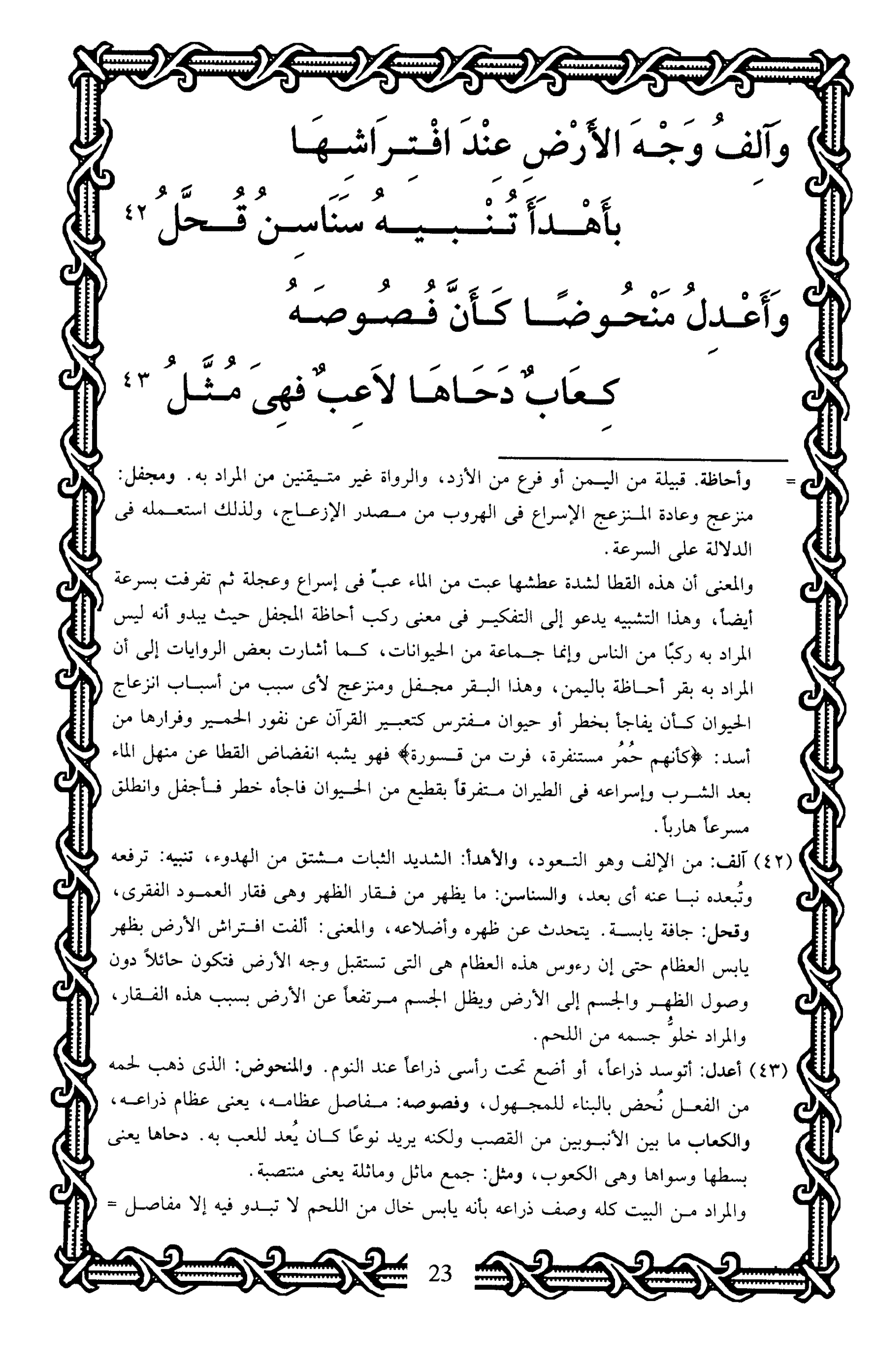
فَـعَـبَّـتْ غِـشَـاشـاً ثُمَّ مَـرَّتْ كَـأَنَّهـا
مَعَ الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أُحَـاظَةَ مُجْفِلُ [41]

= والمعنى أنى سبقت القطا بزمن غير قصير حتى أنى شربت وانصرفت قبل وصول القطا الذى جاء مجهدا يتساقط حول الحوض ملتمسا الماء بذقونه وحواصله.

(٣٩) **وغاها**: أصواتها ووغى الحرب أصواتها، **وحجرتاه** بفتح الحاء: ناحيتاه الضمير يعود على الماء موضوع حديث السياق. **والأضاميم** جمع إضمامة وهم القوم ينضم بعضهم إلى بعض فى السفر خاصة، **والسفر** بفتح السين: المسافرون جمع مثل صاحب وصحب، **ونزل**: جمع نازل يريد المسافر الذى يحط رحله وينزل فى مكان. والمعنى أن أصوات القطا حول الماء كثيرة متزاحمة حتى كأنها جوانب للماء وحواجز له، وهذه الجلبة التى يحدثها القطا فى تزاحمه وأصواته حول الماء كأنها جماعات من مسافرى القبائل التى ترتحل بصخبها من الماشية والرجال والنساء والأطفال فتحدث جلبةً وأصواتاً مختلطة متنوعة حين تنزل فى مكان. فالتشبيه فى البيت منصبّ على وصف أصوات القطا.

(٤٠) **توافين**: توافدن وتجمعن يعنى القطا، **من شتى**: من أماكن متفرقة مختلفة، **ضمها**: جمعها يعنى الماء، **والأذواد**: جمع ذود وهو الجماعة من الإبل بين ثلاثة وعشرة، **والأصاريم** جمع صِرمة بكسر الصاد وهى العدد من الإبل نحو الثلاثين، **والمنهل** الماء الذى يُنهل منه. يشبه تكاثر القطا وتجمعه حول الماء بأعداد كثيرة من الإبل ضمها وجمعها منهل من الماء فتجمعت حوله وتزاحمت عليه جماعات. والبيت متابعة لصورة القطا فى الأبيات السابقة.

(٤١) **العَب**: شرب الماء من غير مص بدفقه فى الحلق دفقاً دون تدرج. وفى الحديث الشريف «مُصُّوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً» **وغشاشاً** أى على عجلة، **والركب**: خاص بركبان الإبل؛=



وآلفُ وَجْهَ الأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا
بأَهْدأَ تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ [٤٢]

وأَعْدِلُ مَنْحُوضًا كَأَنَّ فُصُوصَهُ
كِعَابٌ دَحَاهَا لاَعِبٌ فَهِيَ مُثَّلُ [٤٣]

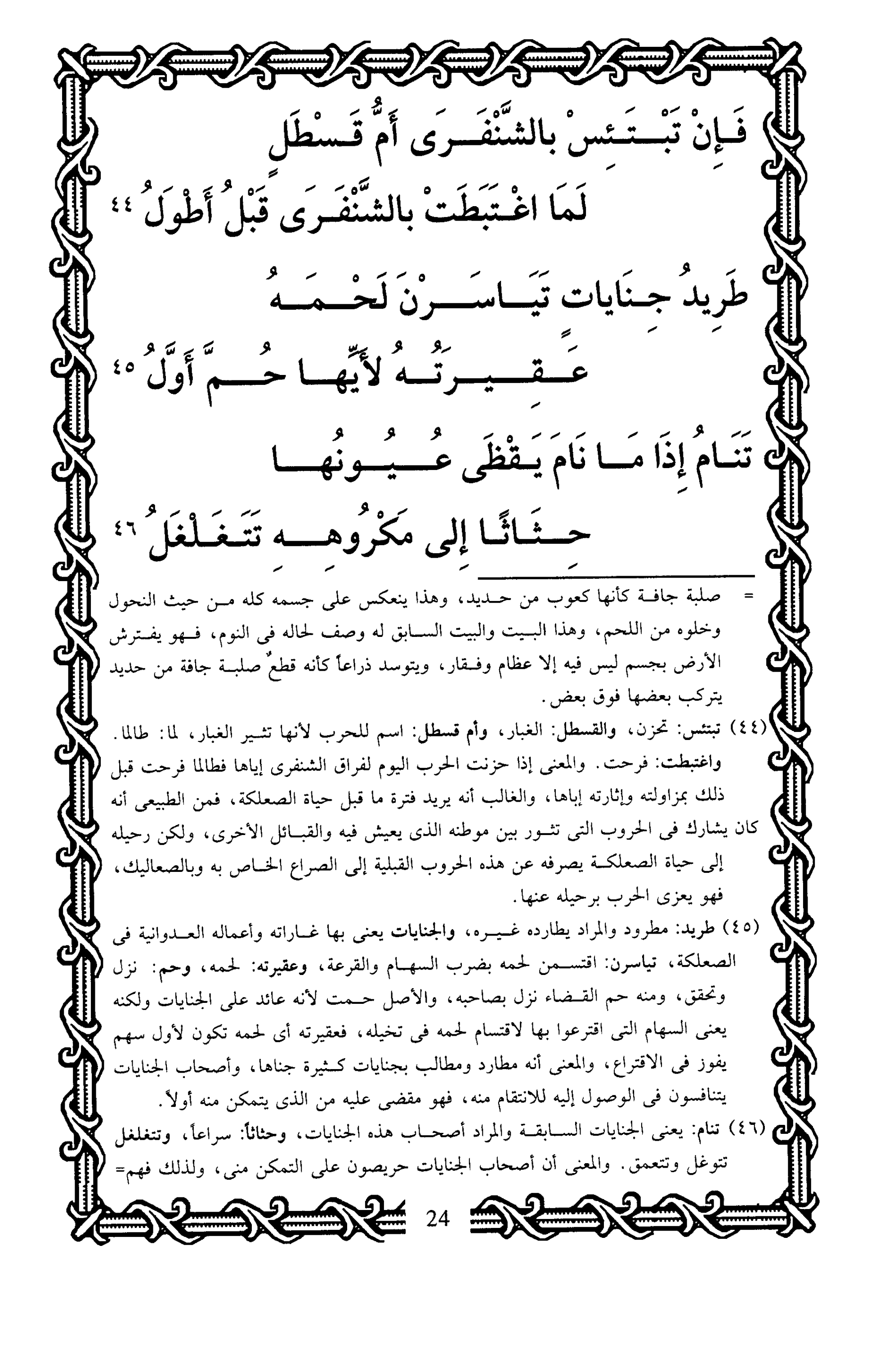
= **وأحاظة**. قبيلة من اليمن أو فرع من الأزد، والرواة غير متيقنين من المراد به. **ومجفل**: منزعج وعادة المنزعج الإسراع فى الهروب من مصدر الإزعاج، ولذلك استعمله فى الدلالة على السرعة.

والمعنى أن هذه القطا لشدة عطشها عبت من الماء عبًّ فى إسراع وعجلة ثم تفرقت بسرعة أيضاً، وهذا التشبيه يدعو إلى التفكير فى معنى ركب أحاظة المجفل حيث يبدو أنه ليس المراد به ركبًا من الناس وإنما جماعة من الحيوانات، كما أشارت بعض الروايات إلى أن المراد به بقر أحاظة باليمن، وهذا البقر مجفل ومنزعج لأى سبب من أسباب انزعاج الحيوان كأن يفاجأ بخطر أو حيوان مفترس كتعبير القرآن عن نفور الحمير وفرارها من أسد: ﴿كأنهم حُمُر مستنفرة، فرت من قسورة﴾ فهو يشبه انفضاض القطا عن منهل الماء بعد الشرب وإسراعه فى الطيران متفرقاً بقطيع من الحيوان فاجأه خطر فأجفل وانطلق مسرعاً هارباً.

(٤٢) **آلف**: من الإلف وهو التعود، **والأهدأ**: الشديد الثبات مشتق من الهدوء، **تنبيه**: ترفعه وتُبعده نبا عنه أى بعد، **والسناسن**: ما يظهر من فقار الظهر وهى فقار العمود الفقرى، **وقحل**: جافة يابسة. يتحدث عن ظهره وأضلاعه، والمعنى: ألفت افتراش الأرض بظهر يابس العظام حتى إن رءوس هذه العظام هى التى تستقبل وجه الأرض فتكون حائلاً دون وصول الظهر والجسم إلى الأرض ويظل الجسم مرتفعاً عن الأرض بسبب هذه الفقار، والمراد خلوُّ جسمه من اللحم.

(٤٣) **أعدل**: أتوسد ذراعاً، أو أضع تحت رأسى ذراعاً عند النوم. **والمنحوض**: الذى ذهب لحمه من الفعل نُحض بالبناء للمجهول، **وفصوصه**: مفاصل عظامه، يعنى عظام ذراعه، **والكعاب** ما بين الأنبوبين من القصب ولكنه يريد نوعًا كان يُعد للعب به. **دحاها** يعنى بسطها وسواها وهى الكعوب، **ومثل**: جمع ماثل وماثلة يعنى منتصبة.

والمراد من البيت كله وصف ذراعه بأنه يابس خال من اللحم لا تبدو فيه إلا مفاصل =



فَإِنْ تَبْتَئِسْ بالشَّنْفَرَى أُمُّ قَسْطَلٍ
لَمَا اغْتَبَطَتْ بالشَّنْفَرَى قَبْلُ أَطْوَلُ [٤٤]

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ
عَقِيرَتُهُ لأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ [٤٥]

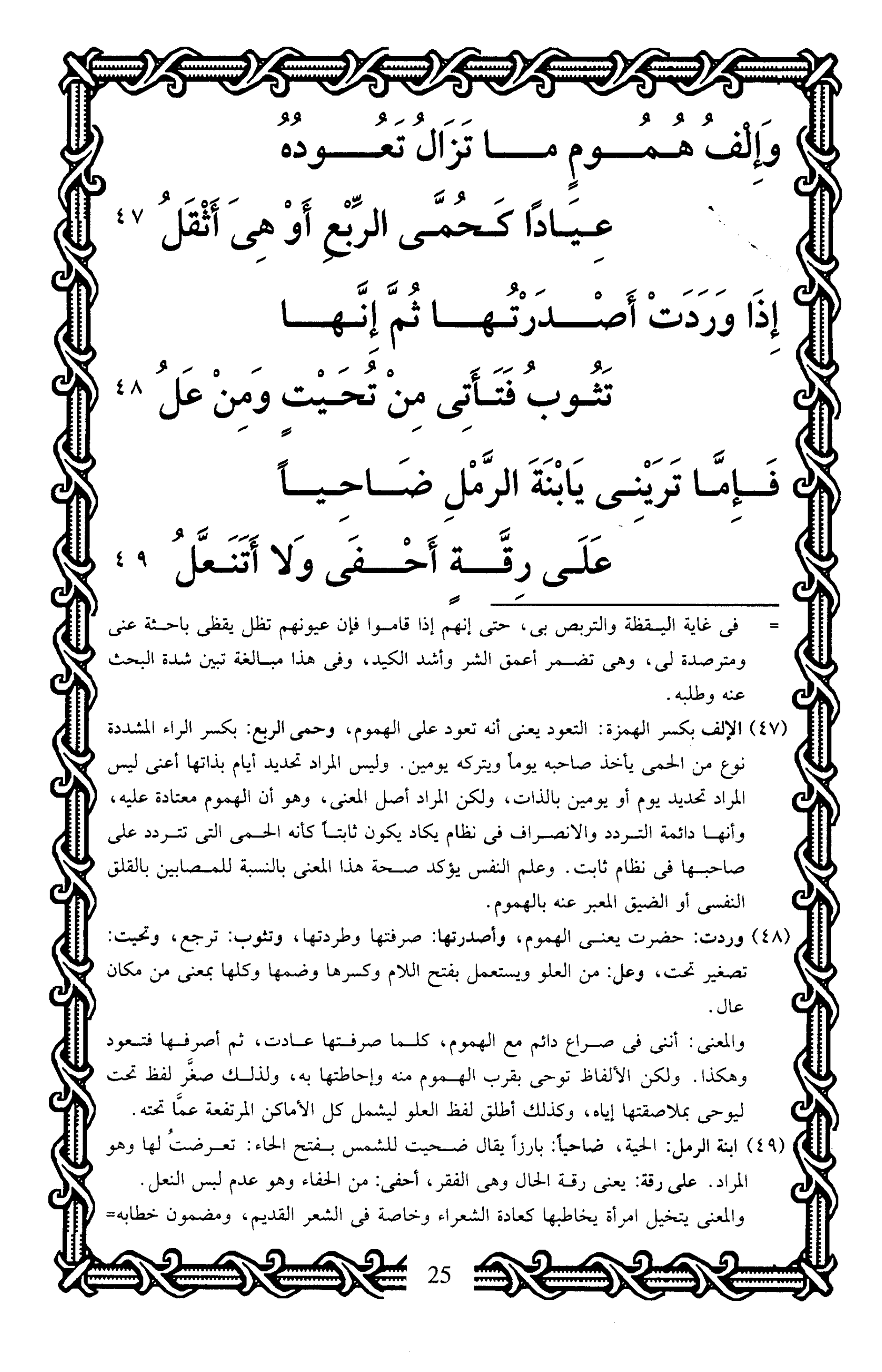
تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُهَا
حِثَاثًا إِلى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ [٤٦]

= صلبة جافة كأنها كعوب من حديد، وهذا ينعكس على جسمه كله من حيث النحول وخلوه من اللحم، وهذا البيت والبيت السابق له وصف لحاله فى النوم، فهو يفترش الأرض بجسم ليس فيه إلا عظام وفقار، ويتوسد ذراعاً كأنه قطعٌ صلبة جافة من حديد يتركب بعضها فوق بعض.

(٤٤) **تبتئس**: تحزن، **والقسطل**: الغبار، **وأم قسطل**: اسم للحرب لأنها تثير الغبار، لما: طالما. **واغتبطت**: فرحت. والمعنى إذا حزنت الحرب اليوم لفراق الشنفرى إياها فطالما فرحت قبل ذلك بمزاولته وإثارته إياها، والغالب أنه يريد فترة ما قبل حياة الصعلكة، فمن الطبيعى أنه كان يشارك فى الحروب التى تثور بين موطنه الذى يعيش فيه والقبائل الأخرى، ولكن رحيله إلى حياة الصعلكة يصرفه عن هذه الحروب القبلية إلى الصراع الخاص به وبالصعاليك، فهو يعزى الحرب برحيله عنها.

(٤٥) **طريد**: مطرود والمراد يطارده غيره، **والجنايات** يعنى بها غاراته وأعماله العدوانية فى الصعلكة، **تياسرن**: اقتسمن لحمه بضرب السهام والقرعة، **وعقيرته**: لحمه، **وحم**: نزل وتحقق، ومنه حم القضاء نزل بصاحبه، والأصل حمت لأنه عائد على الجنايات ولكنه يعنى السهام التى اقترعوا بها لاقتسام لحمه فى تخيله، فعقيرته أى لحمه تكون لأول سهم يفوز فى الاقتراع، والمعنى أنه مطارد ومطالب بجنايات كثيرة جناها، وأصحاب الجنايات يتنافسون فى الوصول إليه للانتقام منه، فهو مقضى عليه من الذى يتمكن منه أولاً.

(٤٦) **تنام**: يعنى الجنايات السابقة والمراد أصحاب هذه الجنايات، **وحثاثاً**: سراعاً، **وتتغلغل** تتوغل وتتعمق. والمعنى أن أصحاب الجنايات حريصون على التمكن منى، ولذلك فهم=



وَإِلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيَاداً كَحُمَّى الرِّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ [٤٧]

إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثُمَّ إِنَّهَا
تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تُحَيْتٍ وَمِنْ عَلُ [٤٨]

فَإِمَّا تَرَيْنِي يَابْنَةَ الرَّمْلِ ضَاحِياً
عَلَى رِقَّةٍ أَحْفَى وَلَا أَتَنَعَّلُ [٤٩]

= في غاية اليقظة والتربص بى، حتى إنهم إذا قاموا فإن عيونهم تظل يقظى باحثة عنى ومترصدة لى، وهى تضمر أعمق الشر وأشد الكيد، وفى هذا مبالغة تبين شدة البحث عنه وطلبه.

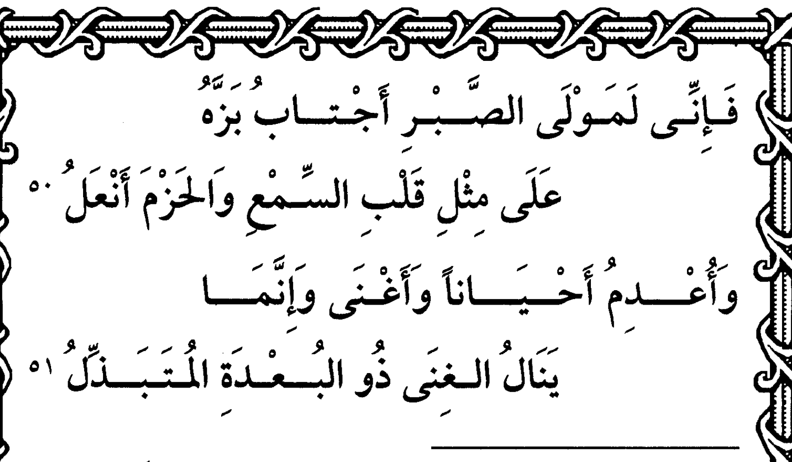
(٤٧) **الإلف** بكسر الهمزة: التعود يعنى أنه تعود على الهموم، **وحمى الربع**: بكسر الراء المشددة نوع من الحمى يأخذ صاحبه يوماً ويتركه يومين. وليس المراد تحديد أيام بذاتها أعنى ليس المراد تحديد يوم أو يومين بالذات، ولكن المراد أصل المعنى، وهو أن الهموم معتادة عليه، وأنها دائمة التردد والانصراف فى نظام يكاد يكون ثابتاً كأنه الحمى التى تتردد على صاحبها فى نظام ثابت. وعلم النفس يؤكد صحة هذا المعنى بالنسبة للمصابين بالقلق النفسى أو الضيق المعبر عنه بالهموم.

(٤٨) **وردت**: حضرت يعنى الهموم، **وأصدرتها**: صرفتها وطردتها، **وتثوب**: ترجع، **وتحيت**: تصغير تحت، **وعل**: من العلو ويستعمل بفتح اللام وكسرها وضمها وكلها بمعنى من مكان عال.

والمعنى: أننى فى صراع دائم مع الهموم، كلما صرفتها عادت، ثم أصرفها فتعود وهكذا. ولكن الألفاظ توحى بقرب الهموم منه وإحاطتها به، ولذلك صغَّر لفظ تحت ليوحى بملاصقتها إياه، وكذلك أطلق لفظ العلو ليشمل كل الأماكن المرتفعة عمَّا تحته.

(٤٩) **ابنة الرمل**: الحية، **ضاحياً**: بارزاً يقال ضحيت للشمس بفتح الحاء: تعرضتُ لها وهو المراد. **على رقة**: يعنى رقة الحال وهى الفقر، **أحفى**: من الحفاء وهو عدم لبس النعل.

والمعنى يتخيل امرأة يخاطبها كعادة الشعراء وخاصة فى الشعر القديم، ومضمون خطابه=



فَـإِنِّـى لَمَـوْلَى الصَّــبْـرِ أَجْـتَــابُ بَزَّهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السِّـمْعِ وَالحَزْمَ أَنْعَلُ ٥٠

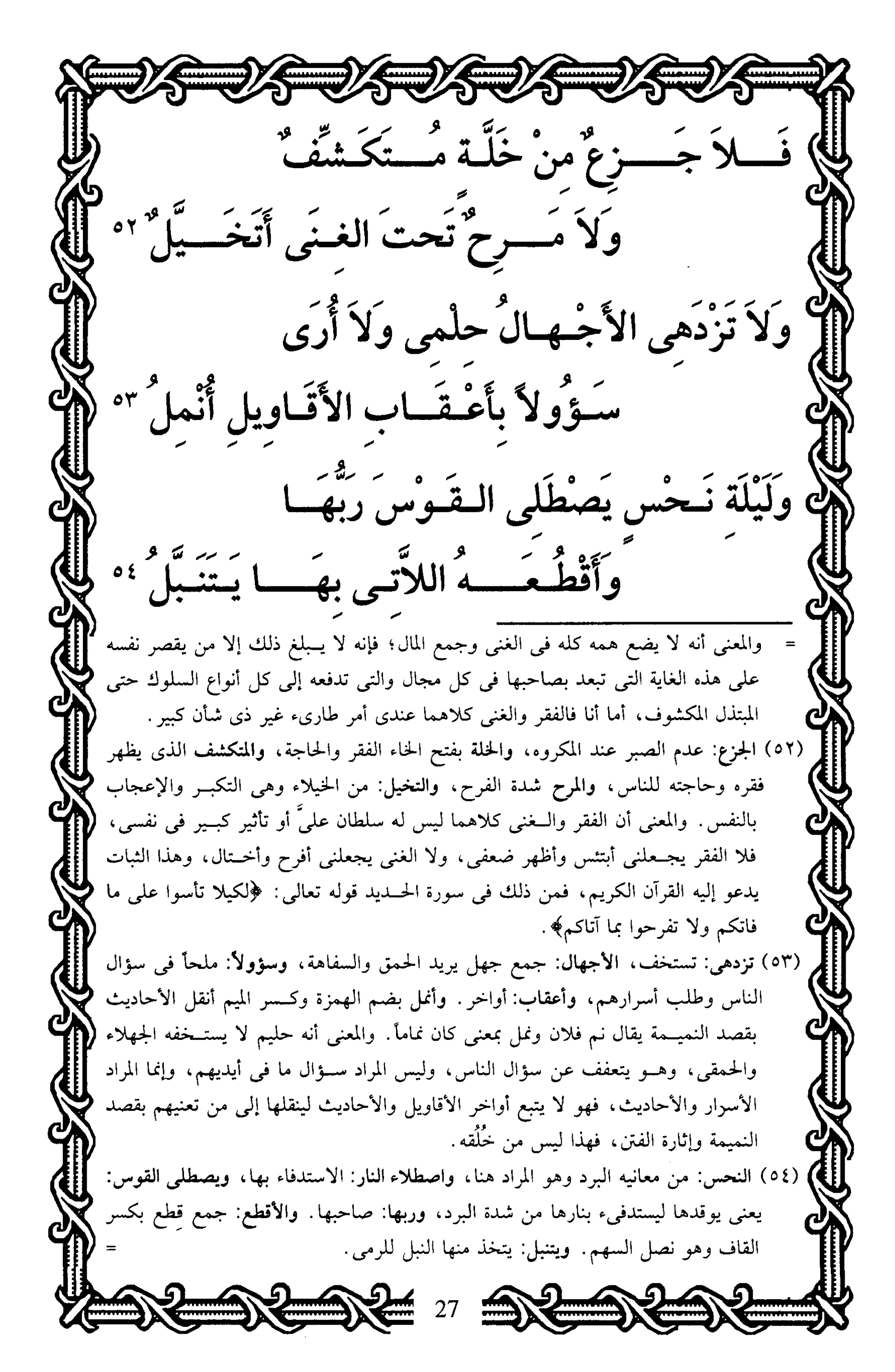
وَأُعْــدِمُ أَحْـيَــاناً وَأَغْـنَى وَإِنَّمَــا
يَنَالُ الـغِنَى ذُو البُـعْـدَةِ المُـتَبَــذِّلُ ٥١

= لها أنه يبدو عليه الفـقر والحرمان من عدة وجوه صرح ببعضـها تصريحاً، ولمح بالأخرى تلميحـاً؛ فمن التلميح أنه يكاد يكون عارى الجـسد وكأنه حية تتـحرك بجلدها المكشوف دون ساتر أو شعر كأغلب الحيوان، ومنهـا أنه لا يملك ما يحجب به جسمه من الشمس كما يفعل الناس بما يلتحفون به من أكسية وأغطية. ومن التصريح بفقره أنه مضطر إلى أن يمشى حـافياً دون نعل، وتكملة المعنى فى البـيت التالى، ولكنه يواصل عرض مـتاعب حيـاته وما يقاسيـه مما لا يحسه إلا من يعـيش حياته هذه الرهيـبة، فبـعد أن شبه نفـسه بالذئب الجائع فى طلب الطعام، تحدث عما يعانيه فى البحث عن الماء مزاحماً القطا، ثم تحدث عن نـحول جسـمه وبروز عظامـه، ثم عن مطاردة أصحـاب الجنايات له، ثم عن همومه التى تأبى أن تفارقه.

(٥٠) **مولى الصبر**: صاحبه ومالكه مبـالغةً فى التمكن من الصبر، **أجتاب**: ألبس، **والبز**: يريد الجيد من ثيـاب الصبر، بمعنى أنه يملك أحسن ما يتـحلى به الناس من الصبر، **والسمع**: بكسر السين المشـددة ولد الذئب من الضبع، **ومثل قلبه**: يعنى شجاعته، **والحزم**: التصرف فى قوة وثقة بالنفس، **أنعل**: بمعنى أتخذه نعلاً يريد الحزم وهو مفعول به مقدم.

والبيت تـكملة لمعنى البيت السـابق، والمعنى إذا كان مظهـرى من العرى والحـفاء يوحى بالفقر والحاجة، فإن جوهرى عامر غنى بالفضائل التى أخـذ يعدد بعضاً منها، وأولها فى هذا البيت أنه صبـور متمكن من قياد نفـسه والتحكم فيهـا، مع قلب كأنه قلب السمع، حتى لا يظن أحد أن الصبر ضعف، وفوق هذا فإن تمكنه من الحزم أشد، حتى كأنه يضع الحزم فى قدميه نعلاً.

(٥١) **العدم**: بفـتح العيـن والدال أو ضم العين وسـكون الدال: الفقـر، **والبعدة**: بضم البـاء وكسرها اسم للبعد بمعنى بعد الهمـة، ولكن المراد سعة الآمال وكثرة المطامع والإبعاد فى السعى وراء المال، **والمتبذل**: الذى لا يصون نفسه ولا يهتم بسـترها، فيلجأ إلى الإسفاف والعيب. =



فَــلاَ جَــزِعٌ مِنْ خَلَّـةٍ مُـتَكَشِّفٌ
وَلاَ مَــرِحٌ تَحتَ الغِـنَى أَتَخَـيَّلُ [٥٢]

وَلاَ تَزْدَهِى الأَجْهَالُ حِلْمِى وَلاَ أُرَى
سَؤُولاً بِأَعْقَابِ الأَقَاوِيلِ أُنْمِلُ [٥٣]

وَلَيْلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلِى القَوْسَ رَبُّهَا
وَأَقْطُعَهُ اللاَّتِى بِهَا يَتَنَبَّلُ [٥٤]

= والمعنى أنه لا يضع همه كله فى الغنى وجمع المال؛ فإنه لا يبلغ ذلك إلا من يقصر نفسه على هذه الغاية التى تبعد بصاحبها فى كل مجال والتى تدفعه إلى كل أنواع السلوك حتى المبتذل المكشوف، أما أنا فالفقر والغنى كلاهما عندى أمر طارىء غير ذى شأن كبير.

(٥٢) **الجزع**: عدم الصبر عند المكروه، **والخلة** بفتح الخاء الفقر والحاجة، **والمتكشف** الذى يظهر فقره وحاجته للناس، **والمرح** شدة الفرح، **والتخيل**: من الخيلاء وهى التكبر والإعجاب بالنفس. والمعنى أن الفقر والغنى كلاهما ليس له سلطان علىَّ أو تأثير كبير فى نفسى، فلا الفقر يجعلنى أبتئس وأظهر ضعفى، ولا الغنى يجعلنى أفرح وأختال، وهذا الثبات يدعو إليه القرآن الكريم، فمن ذلك فى سورة الحديد قوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

(٥٣) **تزدهى**: تستخف، **الأجهال**: جمع جهل يريد الحمق والسفاهة، **وسؤولاً**: ملحاً فى سؤال الناس وطلب أسرارهم، **وأعقاب**: أواخر. **وأنمل** بضم الهمزة وكسر الميم أنقل الأحاديث بقصد النميمة يقال نم فلان ونمل بمعنى كان نماماً. والمعنى أنه حليم لا يستخفه الجهلاء والحمقى، وهو يتعفف عن سؤال الناس، وليس المراد سؤال ما فى أيديهم، وإنما المراد الأسرار والأحاديث، فهو لا يتبع أواخر الأقاويل والأحاديث لينقلها إلى من تعنيهم بقصد النميمة وإثارة الفتن، فهذا ليس من خُلُقه.

(٥٤) **النحس**: من معانيه البرد وهو المراد هنا، **واصطلاء النار**: الاستدفاء بها، **ويصطلى القوس**: يعنى يوقدها ليستدفىء بنارها من شدة البرد، **وربها**: صاحبها. **والأقطع**: جمع قِطع بكسر القاف وهو نصل السهم. **ويتنبل**: يتخذ منها النبل للرمى. =



دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وبَغْشٍ وَصُحْبَتِي

سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ ٥٥

فَأَيَّمْتُ نِسْوَاناً وَأَيْتَمْتُ إِلْدَةً

وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلْيَلُ ٥٦

= والمعنى رب ليلة شديدة البرد تبلغ من بردها أن يحطم صاحب القوس قوسه ونصال سهامه التى يرمى بها ويجازف بفقد أهم ما يحتاج إليه ليستدفىء به. وتكملة المعنى فى البيت التالى.

(٥٥) **دعست**: مشيت، **والغطش**: الظلمة، **والبغش** المطر الخفيف، **وصحبتى**: أصحابى، **السعار**: بضم السين: شدة الجوع وأصله حر النار فاستعير لشدة الجوع، **والارزيز**: البرد الشديد، **والوجر**: الخوف، **والأفكل**: الرعدة والارتعاش، **ودعست** جواب رُبَّ المقدرة فى البيت السابق، والمعنى رُب ليلة برد دعست فيها مع هذه الأحوال التى ذكرتها من الظلام والمطر، لا يصحبنى فيها وفى هذه الأحوال الرهيبة إلا أصحابٌ أشد رهبة وإيلاماً، وهى شدة الجوع الذى يشبه النار، والبرد الشديد والخوف والرعشة فى جسمى من هذه العوامل كلها.

(٥٦) **الأيم**: من لا زوج لها من النساء، وكذلك من لا زوج له من الرجال، وأيمتُ المرأة: جعلتها تفقد زوجها بمعنى أن يقتل زوجها، **وأيتمت**: جعلتهم يتامى بفقد الآباء، **وإلدة**: أولاد، **وأبدأت**: معناه بدأت، **وأليل**: شديد الظلام.

والبيت مرتبط أيضاً بما قبله، والمعنى أننى لا يمنعنى من تنفيذ عزمى شىء، فقد أمشى فى الليلة الشديدة الظلام والبرد على أرض موحلة من آثار المطر، وبى جوع شديد وخوف عميق حتى إن جسمى يرتعش من هذه الأسباب كلها، ومع ذلك لا يصدنى هذا عن الوصول إلى أهدافى وإغارتى عليهم، فأحقق ما أريد، فأقتل رجالاً تصبح زوجاتهم أيامى وأولادهم يتامى، وأحقق ذلك كله فى وقت وجيز حتى إنى أعود و ما زال الظلام دامساً.



وَأَصْبَحَ عَنِّى بالغُمَيْصَاء جَالساً
فَرِيقَانِ: مَسْئُولٌ، وَآخَرُ يَسْأَلُ [٥٧]

فَقَالُوا: لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلابُنَا
فَقُلْنَا: أَذِئْبٌ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ [٥٨]

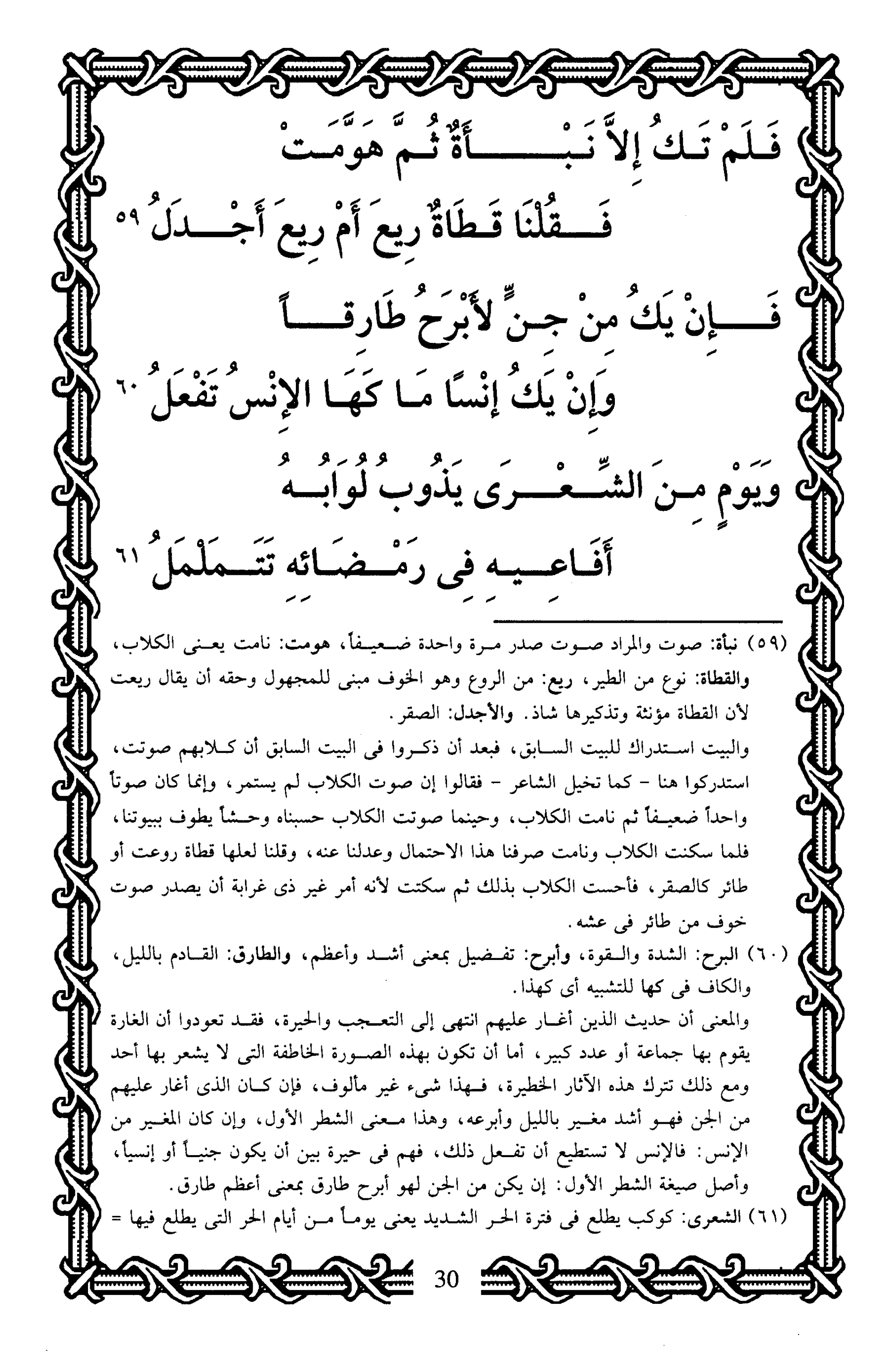
---

(٥٧) **الغميصاء**: مكان بنجد، **والجلس**: بفتح الجيم اسم لبلاد نجد، **وجالساً** ليس المراد بها القعود وإنما المراد إتيان نجد ودخولها كما يقال أَتْهَمَ: أتى تهامة وأشأم: أتى الشام وأنجد: أتى نجداً وكذلك جلس: أتى الجلس بالفتح وهو نجد.

والبيت مرتبط بالأبيات السابقة حيث يعبر فيه عن نتيجة غارته التى وصفها فى الأبيات الثلاثة السابقة فيقول إن غارته كانت فى جوف الليل وكانت نتيجتها أنه عند الصباح أخذ الذين أغار عليهم يسأل بعضهم بعضًا وهم بنجد عن آثار غارتى متعجبين من سرعتها الخاطفة وآثارها الرهيبة التى تمخضت عنها، وليس فى هذا دليل على أن الشنفرى كانت حياته فى نجد، فالأبيات مجرد وصف لإحدى غاراته، وموطنه فى فترة الصعلكة كان فيما بين مكة والمدينة من جبال السراة، أما ذكر نجد فى هذا البيت فيحتمل أنها غارة على أعدائه المقيمين فى نجد ثم عاد إلى موطنه. ويكون قوله (عدت والليل أليل) مبالغة فى سرعة عودته، ويحتمل أنها غارة على قافلة من باب قطع الطريق وكانت القافلة حينئذ فى موطنه من السراة ثم واصلت سيرها حتى حطت رحالها فى الغميصاء من نجد، وهناك أخذ أفرادها يتداولون وصف هذه الغارة التى أغارها عليهم الشنفرى بين سائل ومسئول.

(٥٨) **هرير الكلب**: صوته أضعف من النباح، يعنى سمعنا صوتاً ضعيفاً من الكلاب. **والعس**: الطواف بالليل ومنه العسس وهم حراس الأمن بالليل، **والفرعل** بضم الفاء والعين: ولد الضبع.

والمعنى أن الذين أغار عليهم أصبحوا يصفون هذه الغارة متعجبين يقول بعضهم لبعض: إننا لم نسمع إلا صوتاً ضعيفاً من الكلاب فحسبنا أن الكلاب أحست بذئب أو فرعل فأصدرت هذا الصوت.



فَلَمْ تَكُ إِلاَّ نَبْأَةٌ ثُمَّ هَوَّمَتْ
فَقُلْنَا قَطَاةٌ رِيعَ أَمْ رِيعَ أَجْدَلُ ٥٩

فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنٍّ لأَبْرَحُ طَارِقاً
وَإِنْ يَكُ إِنْسًا مَا كَهَا الإِنْسُ تَفْعَلُ ٦٠

وَيَوْمٍ مِنَ الشِّعْرَى يَذُوبُ لُوَابُهُ
أَفَاعِيهِ فِي رَمْضَائِهِ تَتَمَلْمَلُ ٦١

---

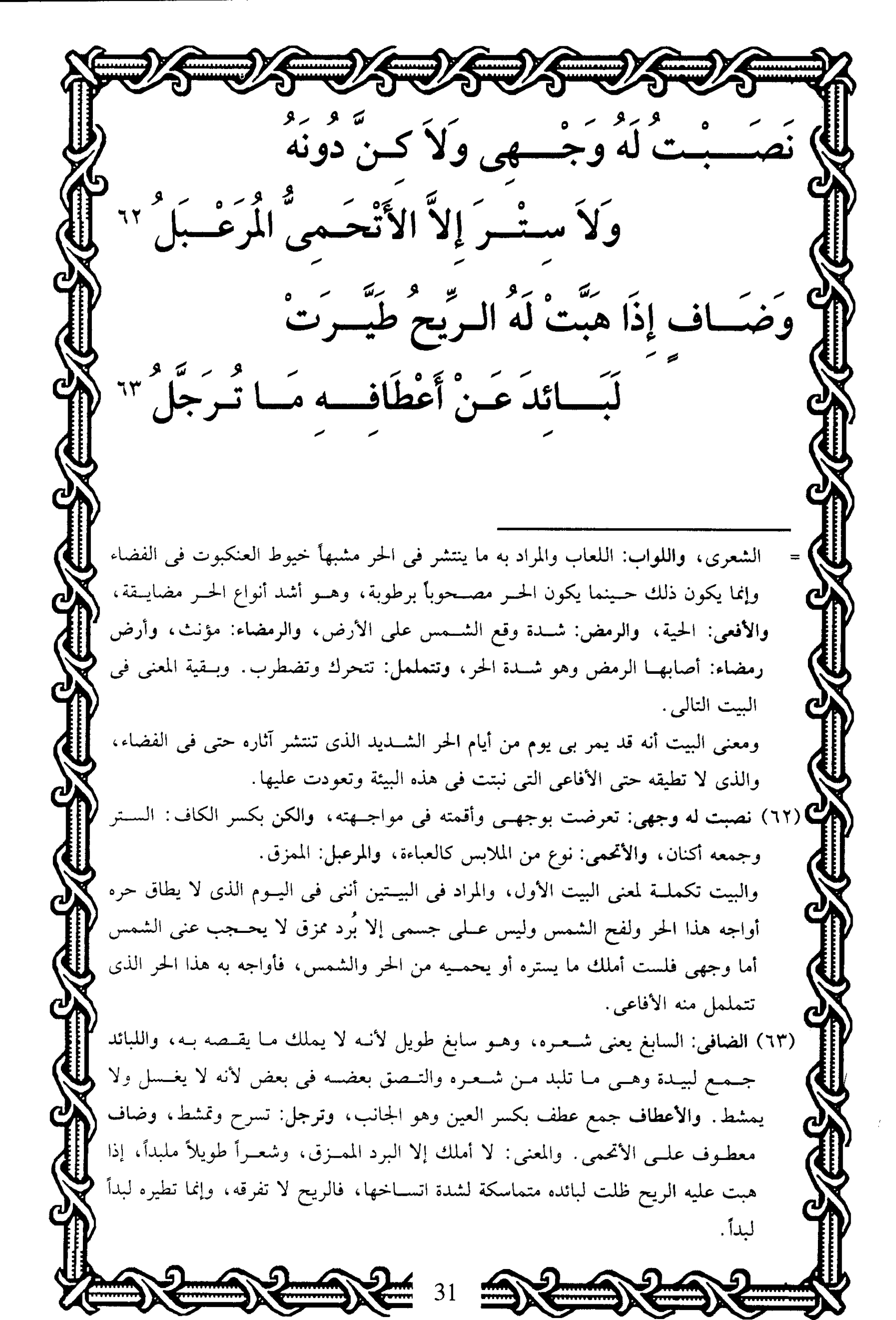
(٥٩) **نبأة**: صوت والمراد صوت صدر مرة واحدة ضعيفاً، **هومت**: نامت يعني الكلاب، **والقطاة**: نوع من الطير، **ريع**: من الروع وهو الخوف مبنى للمجهول وحقه أن يقال ريعت لأن القطاة مؤنثة وتذكيرها شاذ. **والأجدل**: الصقر.

والبيت استدراك للبيت السابق، فبعد أن ذكروا فى البيت السابق أن كلابهم صوتت، استدركوا هنا - كما تخيل الشاعر - فقالوا إن صوت الكلاب لم يستمر، وإنما كان صوتاً واحداً ضعيفاً ثم نامت الكلاب، وحينما صوتت الكلاب حسبناه وحشاً يطوف ببيوتنا، فلما سكنت الكلاب ونامت صرفنا هذا الاحتمال وعدلنا عنه، وقلنا لعلها قطاة روعت أو طائر كالصقر، فأحست الكلاب بذلك ثم سكتت لأنه أمر غير ذى غرابة أن يصدر صوت خوف من طائر فى عشه.

(٦٠) **البرح**: الشدة والقوة، **وأبرح**: تفضيل بمعنى أشد وأعظم، **والطارق**: القادم بالليل، والكاف فى **كها** للتشبيه أى كهذا.

والمعنى أن حديث الذين أغار عليهم انتهى إلى التعجب والحيرة، فقد تعودوا أن الغارة يقوم بها جماعة أو عدد كبير، أما أن تكون بهذه الصورة الخاطفة التى لا يشعر بها أحد ومع ذلك تترك هذه الآثار الخطيرة، فهذا شىء غير مألوف، فإن كان الذى أغار عليهم من الجن فهو أشد مغير بالليل وأبرعه، وهذا معنى الشطر الأول، وإن كان المغير من الإنس: فالإنس لا تستطيع أن تفعل ذلك، فهم فى حيرة بين أن يكون جنياً أو إنسياً، وأصل صيغة الشطر الأول: إن يكن من الجن لهو أبرح طارق بمعنى أعظم طارق.

(٦١) **الشعرى**: كوكب يطلع فى فترة الحر الشديد يعنى يوماً من أيام الحر التى يطلع فيها =



نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِى وَلاَ كِنَّ دُونَهُ
وَلاَ سِتْرَ إِلاَّ الأَتْحَمِىُّ المُرَعْبَلُ [٦٢]

وَضَافٍ إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لَبَائِدَ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تُرَجَّلُ [٦٣]

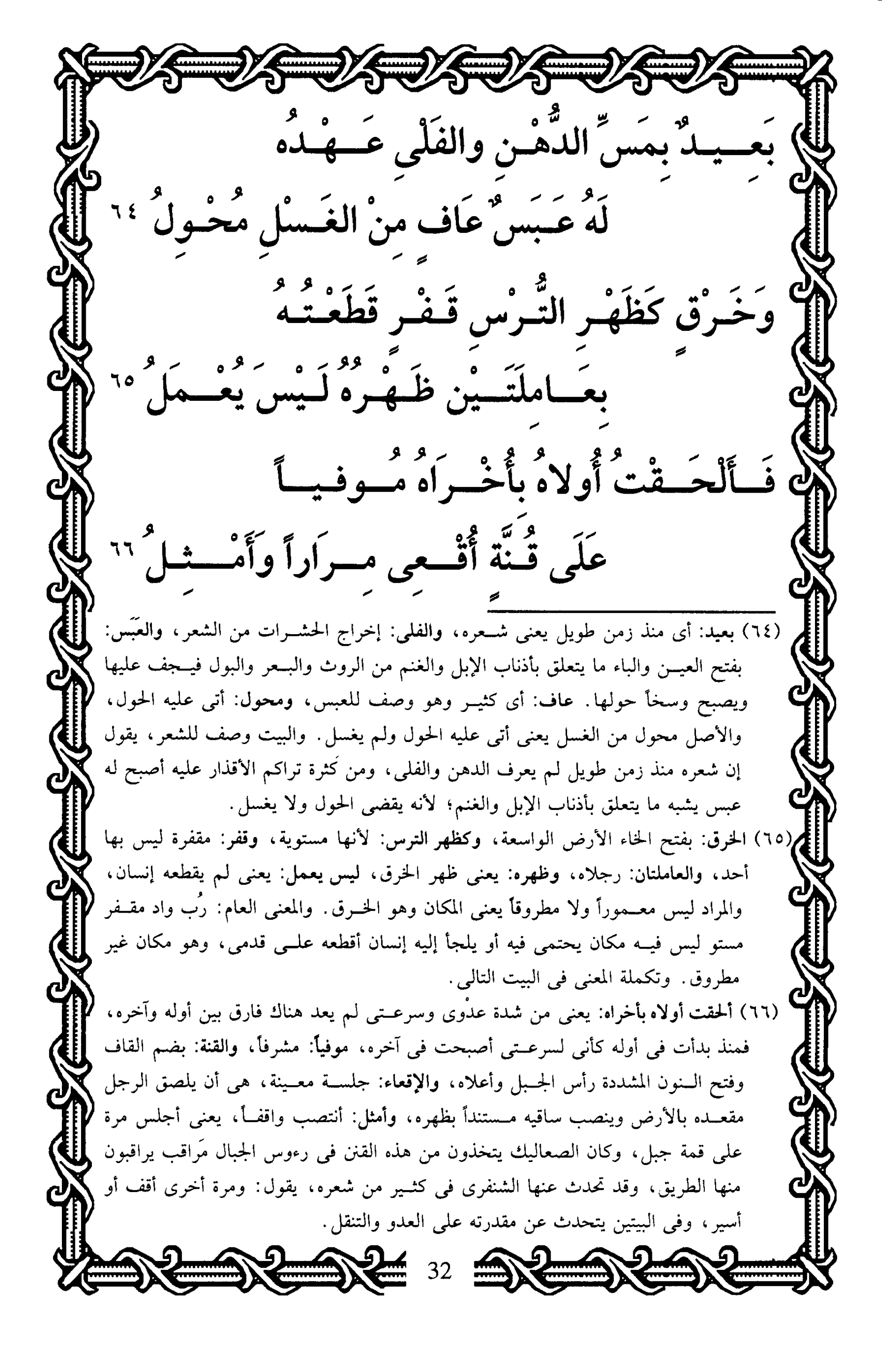
= الشعرى، **واللواب**: اللعاب والمراد به ما ينتشر فى الحر مشبهاً خيوط العنكبوت فى الفضاء وإنما يكون ذلك حينما يكون الحر مصحوباً برطوبة، وهو أشد أنواع الحر مضايقة، **والأفعى**: الحية، **والرمض**: شدة وقع الشمس على الأرض، **والرمضاء**: مؤنث، **وأرض رمضاء**: أصابها الرمض وهو شدة الحر، **وتتململ**: تتحرك وتضطرب. وبقية المعنى فى البيت التالى.

ومعنى البيت أنه قد يمر بى يوم من أيام الحر الشديد الذى تنتشر آثاره حتى فى الفضاء، والذى لا تطيقه حتى الأفاعى التى نبتت فى هذه البيئة وتعودت عليها.

(٦٢) **نصبت له وجهى**: تعرضت بوجهى وأقمته فى مواجهته، **والكن** بكسر الكاف: الستر وجمعه أكنان، **والأتحمى**: نوع من الملابس كالعباءة، **والمرعبل**: الممزق.

والبيت تكملة لمعنى البيت الأول، والمراد فى البيتين أننى فى اليوم الذى لا يطاق حره أواجه هذا الحر ولفح الشمس وليس على جسمى إلا بُرد ممزق لا يحجب عنى الشمس أما وجهى فلست أملك ما يستره أو يحميه من الحر والشمس، فأواجه به هذا الحر الذى تتململ منه الأفاعى.

(٦٣) **الضافى**: السابغ يعنى شعره، وهو سابغ طويل لأنه لا يملك ما يقصه به، واللبائد جمع لبيدة وهى ما تلبد من شعره والتصق بعضه فى بعض لأنه لا يغسل ولا يمشط. **والأعطاف** جمع عطف بكسر العين وهو الجانب، **وترجل**: تسرح وتمشط، وضاف معطوف على الأتحمى. والمعنى: لا أملك إلا البرد الممزق، وشعراً طويلاً ملبداً، إذا هبت عليه الريح ظلت لبائده متماسكة لشدة اتساخها، فالريح لا تفرقه، وإنما تطيره لبداً لبداً.



بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ
لَهُ عَبَسٌ عَافٍ مِنَ الغَسْلِ مُحْوِلُ [٦٤]

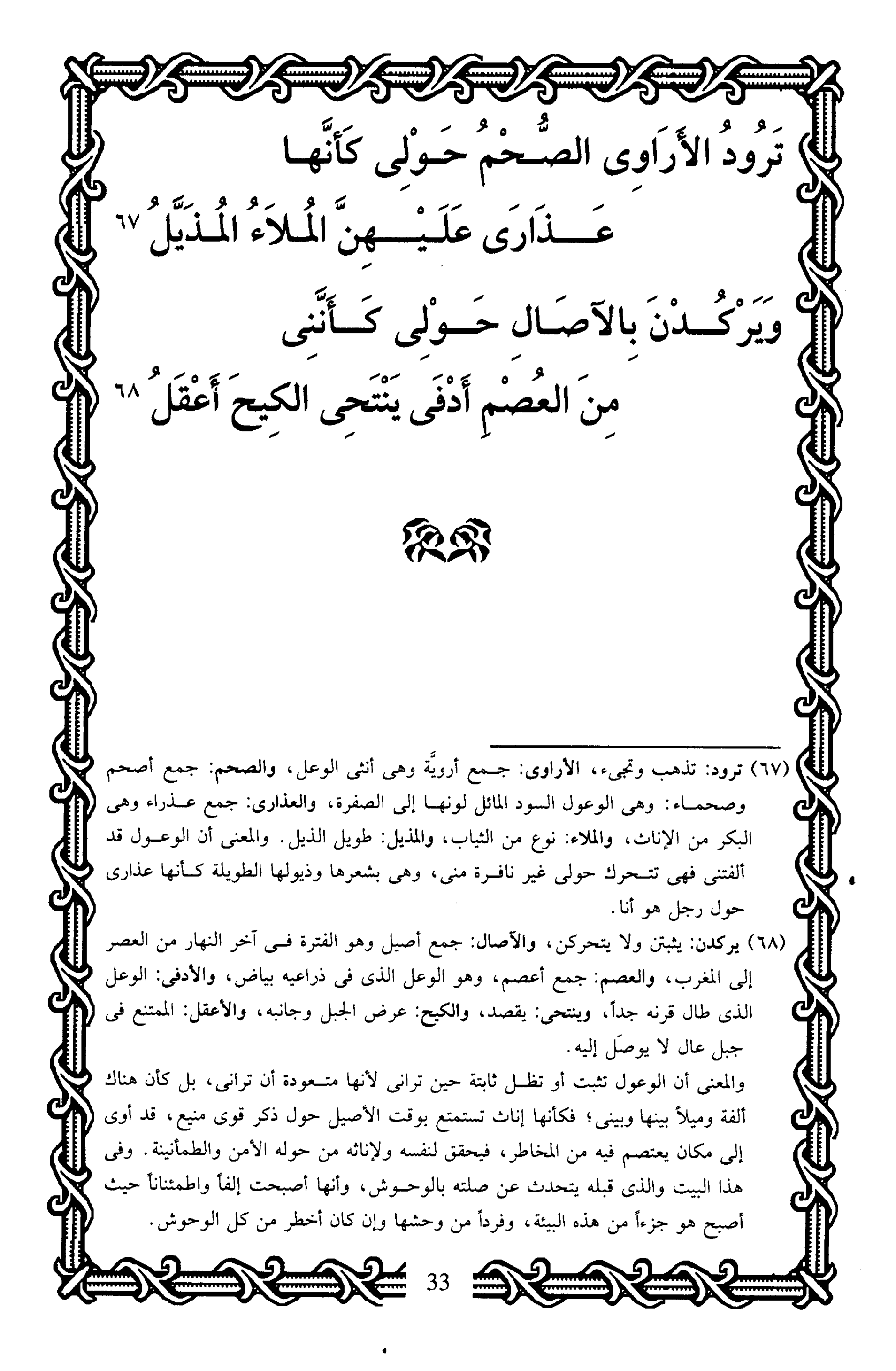
وَخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
بِعَامِلَتَيْنِ ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ [٦٥]

فَأَلْحَقْتُ أُولاهُ بِأُخْرَاهُ مُوفِياً
عَلَى قُنَّةٍ أُقْعِي مِرَاراً وَأَمْثُلُ [٦٦]

(٦٤) **بعيد**: أى منذ زمن طويل يعنى شعره، **والفلى**: إخراج الحشرات من الشعر، **والعَبَس**: بفتح العين والباء ما يتعلق بأذناب الإبل والغنم من الروث والبعر والبول فيجف عليها ويصبح وسخاً حولها. **عاف**: أى كثير وهو وصف للعبس، **ومحول**: أتى عليه الحول، والأصل محول من الغسل يعنى أتى عليه الحول ولم يغسل. والبيت وصف للشعر، يقول إن شعره منذ زمن طويل لم يعرف الدهن والفلى، ومن كَثرة تراكم الأقذار عليه أصبح له عبس يشبه ما يتعلق بأذناب الإبل والغنم؛ لأنه يقضى الحول ولا يغسل.

(٦٥) **الخرق**: بفتح الخاء الأرض الواسعة، **وكظهر الترس**: لأنها مستوية، **وقفر**: مقفرة ليس بها أحد، **والعاملتان**: رجلاه، **وظهره**: يعنى ظهر الخرق، **ليس يعمل**: يعنى لم يقطعه إنسان، والمراد ليس معموراً ولا مطروقاً يعنى المكان وهو الخرق. والمعنى العام: رُب واد مقفر مستو ليس فيه مكان يحتمى فيه أو يلجأ إليه إنسان أقطعه على قدمى، وهو مكان غير مطروق. وتكملة المعنى فى البيت التالى.

(٦٦) **ألحقت أولاه بأخراه**: يعنى من شدة عدْوى وسرعتى لم يعد هناك فارق بين أوله وآخره، فمنذ بدأت فى أوله كأنى لسرعتى أصبحت فى آخره، **موفياً**: مشرفاً، **والقنة**: بضم القاف وفتح النون المشددة رأس الجبل وأعلاه، **والإقعاء**: جلسة معينة، هى أن يلصق الرجل مقعده بالأرض وينصب ساقيه مستنداً بظهره، **وأمثل**: أنتصب واقفاً، يعنى أجلس مرة على قمة جبل، وكان الصعاليك يتخذون من هذه القنن فى رءوس الجبال مَراقب يراقبون منها الطريق، وقد تحدث عنها الشنفرى فى كثير من شعره، يقول: ومرة أخرى أقف أو أسير، وفى البيتين يتحدث عن مقدرته على العدو والتنقل.



تَرُودُ الأَرَاوِى الصُّحْمُ حَوْلِى كَأَنَّها
عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُلاءُ المُذَيَّلُ [٦٧]

وَيَرْكُدْنَ بالآصَالِ حَوْلِى كَأَنَّنِى
مِنَ العُصْمِ أَدْفَى يَنْتَحِى الكِيحَ أَعْقَلُ [٦٨]

---

(٦٧) **ترود**: تذهب وتجىء، **الأراوى**: جمع أرويَّة وهى أنثى الوعل، **والصحم**: جمع أصحم وصحماء: وهى الوعول السود المائل لونها إلى الصفرة، **والعذارى**: جمع عذراء وهى البكر من الإناث، **والملاء**: نوع من الثياب، **والمذيل**: طويل الذيل. والمعنى أن الوعول قد ألفتنى فهى تتحرك حولى غير نافرة منى، وهى بشعرها وذيولها الطويلة كأنها عذارى حول رجل هو أنا.

(٦٨) **يركدن**: يثبتن ولا يتحركن، **والآصال**: جمع أصيل وهو الفترة فى آخر النهار من العصر إلى المغرب، **والعصم**: جمع أعصم، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض، **والأدفى**: الوعل الذى طال قرنه جداً، **وينتحى**: يقصد، **والكيح**: عرض الجبل وجانبه، **والأعقل**: الممتنع فى جبل عال لا يوصَل إليه.

والمعنى أن الوعول تثبت أو تظل ثابتة حين ترانى لأنها متعودة أن ترانى، بل كأن هناك ألفة وميلاً بينها وبينى؛ فكأنها إناث تستمتع بوقت الأصيل حول ذكر قوى منيع، قد أوى إلى مكان يعتصم فيه من المخاطر، فيحقق لنفسه ولإناثه من حوله الأمن والطمأنينة. وفى هذا البيت والذى قبله يتحدث عن صلته بالوحوش، وأنها أصبحت إلفاً واطمئناناً حيث أصبح هو جزءاً من هذه البيئة، وفرداً من وحشها وإن كان أخطر من كل الوحوش.



نَسَبُ الشنفرَى

لم يختلف الرواة فى نسبة الشنفرى إلى الأَزْد؛ ولذلك تتحدث عنه أغلب الروايات بأنه الشنفرى الأزدى، وإن كان لفظ الشنفرى لذاته أصبح من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى زيادة تعريف أو توضيح، فهو عَلَم فرد فى التاريخ العربى قديمه وحديثه، لم يشارك فيه صاحبه -أو لم يزاحمه فى الشهرة على الأقل - شخص آخر.

وأما التسلسل القريب لآبائه، فأغلب الروايات تذكر أنه **الشنفرى بن الأُواس** (بكسر الهمزة أو ضمها) **بن الحِجْر** (بكسر الحاء وسكون الجيم) **بن الهُنَيْء** (بوزن كليب) **بن الأزد**.

وأما فرعه من قبيلة الأزد، فهو أزد شَنوءة التى استوطنت منطقة السراة فيما بين مكة والمدينة[1]، وتختلف الروايات فى سبب وصفهم بشنوءة، فبعضها يجعلها من الشنآن وهو العداوة، ويسوق لذلك أحداثًا من الخصومة والعداء فى أحداث تتعلق بخزاعة، سُمُّوا من أجلها أزد شنوءة، وبعض الروايات يذكر أن شنوءة مخلاف باليمن، ومعنى ذلك أن نسبتهم هذه لبيان موطنهم من اليمن، بينما تذكر رواية أخرى أن موطنهم باليمن ليس شنوءة، وإنما أبيدة. ومهما يكن فالشنفرى أزدى، وفرعه من الأزد استوطن السراة، ولذلك يسمون أحيانًا أزد السراة، وكان ذلك قبل الإسلام بزمن غير قصير.

مجمل تاريخى:

قبل أن ندخل فى شىء من التحليل والتعقيب على الشنفرى وحياته ينبغى أن نلم بنبذة تاريخية مجملة، خالية من التعليق والتعقيب؛ حتى نستطيع بعد ذلك أن نجد فى أذهاننا صورة ولو مجملة عن الشخص الذى نتحدث عنه، وعن حياته التى يتعرض لها الحديث.

وهناك نقاط تتفق عليها الروايات أو تكون فى حكم المتفق عليها من حياة الشنفرى، وهناك نقاط تختلف حولها الروايات. فما تتفق عليه الروايات أنه أزدى من

(١) يذكر كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى أن جبال السراة فى نجد.

حيث النسب، وأن فرعـه هو أزد شنوءة الذين عاشوا فى منطقة السراة فـيما بين مكة والمدينة، ومن المتفق عليه أيضًا أنه نشأ فى غيـر قومه، حيث انتقل أو نقل وهو غلام صغير إلى قوم آخرين وهم بنو شبابة بن فهم، ثم انتقل أو نقل منهم إلى بنى سلامان بن مفـرج وهم من الأزد أيضًا، وأن حـياته فى هذا التنقـل لم تكن حياة الـعزة التى يحظى بها أبناء المـكان، وإنما حياة الدخـلاء على القوم. ومن المتفق عليـه أن عداوته تركزت علـى بنى سلامان حـتى آلى على نفســه أن يقتل مـائة رجل منهم، وأنه ظل مصممًـا ومستميتًا فى تنفيـذ وعيده هذا حتى قتل منهم تسعة وتسـعين رجلاً قبل أن يدركه الموت، ومـن المتفق عليـه أيضًا أنه مات قـتيـلاً، وأن بنى سلامـان فى إحدى محـاولاتهم التربص به والترصد له هم الذيـن قتلوه، ومن المتفق عليه أنه من أشـهر صعاليك العرب وقطاع الطرق فيهم، ومن أشهر شعرائهم وأجودهم شعرًا أيضًا. ومن المتفق عليه أنه من العدّائين الذين لم يلحقـهم خيل ولا أحد قط، وأنه بلغ من امتيازه عن غيـره من العدائين أن ضرب بـه المثل فى العَدْو(1)، ومن طريف ما تـتفق عليه الروايات جمـيعًا بالنسبـة للشنفرى خبـران غريبان، وغرابتـهما هى مصـدر الطرافة؛ أحدهما أنه حين مات لم يكن قتل إلا تسـعة وتسعين من المائة الذين أقسم أن يقتلهم من بنى سـلامان، وبعـد موته بزمن لـم تحدده الروايات مـر رجل من بنى سلامـان فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فَعَقَرَتْ، فمات، فاكتملت به المائة. والخبر الثانى أن الوصية الوحـيدة التى أفضى بها عند موته حـين همّ أعداؤه بقتله هى ألاّ يدفنوه، بل يتركوا جيفته فى العراء غنيمة للضبع المشهورة بالبحث عن الجيف باعتبارها الطعام الشهى المفضل لديهـا، وقد صاغ الشنفرى وصيـته هذه فى شعر من أشهـر ما تحرص الكتب القديمة على إثباته وتداوله، حيث يقول فى هذا الشعر:

فـلا تَقـبـرونى إنَّ قَبْـرى مُـحَـرَّمٌ   عليكمُ ولَـكِنْ أبْشِـرى أمَّ عـامِـر

وأم عامر كنية الضبع عند العرب.

وفى حكم المتفق عليـه بين الروايات ضمناً أنه جـاهلى، ولم يخالف فى ذلك إلا صاحب القـاموس المحـيط؛ حيث عده من أغـربة العرب الإسـلاميـين، وهم السودُ الألوان تشبـيها بالغراب المشـهور بالسواد، ومن الواضح أنه مجـرد لَبْسٍ من صاحب

(1) فى بعض الروايات أن السليك ضُرب به المثل أيضاً فى العدو دون إجماع على ذلك.

القاموس، حث يركز همه كله على التحقيق اللغوى وليس التاريخ، وهو نفسه لم يسق هذا على أنه رأى أو مخالفة لغيره أو نحو ذلك، وإنما هو من باب تداعى المعلومات التى لا يعمد فيها صاحبها إلى تحقيق أو تدقيق علمى، فذكر «تأبط شراً» والشنفرى ضمن الإسلاميين[1].

وهذه الروايات على إيجازها من جهة، وعلى عدم اهتمامها بالتفاصيل من جهة أخرى إلا أنها ترسم الهيكل العام للشنفرى وحياته بصورة فيها من الوضوح القدر الذى تستلزمه دراسة حياته وشعره.

وأما النقاط التى كانت موضع اختلاف بين الروايات: فمنها سبب انتقاله من قومه إلى آخرين، فبعض الروايات يذكرأن بنى شبابه ابن فهم أسروه فى بعض غاراتهم على أهله من بنى الأواس بن الحجر، ثم أسر بنو سلامان بن مفرح - وهم من الأزد - رجلاً من بنى فهم الذين أسروا الشنفرى، فافتدى بنو فهم رجلَهم بالشنفرى، وبناء على ذلك انتقل الشنفرى إلى بنى سلامان مكان الفهمى، وعاش فى بنى سلامان كأنه واحد منهم حتى حدث من الأحداث ما جعله ينقم على بنى سلامان ويعود إلى بنى فهم. وبعض الروايات يذكر أنه لم يؤسر، وإنما عمد بنو سلامان إلى قتل والد الشنفرى فلم تجد أم الشنفرى من بنى الحجر من يطالب بدمه فنقمت عليهم وانتقلت بالشنفرى وهو صغير إلى بنى فهم، فلما شب الشنفرى أخذ يغير على بنى سلامان مستعيناً فى بعض غاراته ببعض بنى فهم كصديقه تأبط شراً.

وليست هذه التفاصيل ذات قيمة كبيرة فى مجال الدراسة الأدبية. وإنما يعنى هذه الدراسة ما تتفق عليه الروايات، وهو أنه نشأ فى غير قومه، ليحيا حياةً غير عادية من حيث عدم تمتعه بالكرامة التى يَحْظَى بها ابن القبيلة أو العشيرة، وهو يسجل هذه الحقيقة فى شعره حيث يقول:

وَهِنىءَ بى قومٌ وما إنْ هَنأْتُهم وأصبحتُ فى قومٍ وليسوا بمنبتى

(١) من القرائن التاريخية التى تقرب تحديد زمن الشنفرى أن صديقه تأبط شرا كانت له أخت تسمى آمنة تزوجت من نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى الذى أسلم ابنه عدى سنة ٨ هـ كما نقل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ١/ ١٠٤، ومعنى ذلك أن تأبط شرا كان فى الجيل السابق للإسلام، والشنفرى صديقه رغم انه أكبر سناً ومات قبل تأبط شرا ورثاه تأبط شرا بشعر، فيكون الشنفرى أيضاً من الجيل السابق للإسلام.

وقد تحدث كـثيراً فى شعـره عن نفوره من الهوان ومن الناس حـينما يحس منهم ذلك، وهذا يشير إلى وضوح هذا الإحساس فى نفسه.

ومما اختلفت حولـه الروايات سبب تركه بنى سلامان؛ فـأغلب الروايات تثبت أن بنى سلامان أخذوه فدية من بنى شـبابة بن فهم مكان رجل منهم، وأنه عاش فى بنى سلامان كأنه أحدهم، ثم تختلف الروايات فى سبب نقمـته عليهم وتركهم، فبعضها يذكر أن الرجل السلامـى الذى كان الشنفرى يعيش عنده ويرعى إبله، كـانت له فتاة تسمى قعسوس، والواقع أن هذا القـدر موضع اتفاق بين الروايات، ولكن الاختلاف يبدأ بينهما بعد ذلك، فبعضها يذكر أن الشنفرى بعد أن تبناه السلامى حسبَ قعسوس أخته، بينمـا هى تعرف أنه أسيرهم، فطلب منها ذات يوم أن تعـينه فى غسل رأسه، فأنفت أن يستخـدمها فلطمته، فذهب يستوضح أباهـا فعلم منه أنه أسير وليس ابنه، فكان ذلك سبب نقمته عليهم، وبعض الروايات يذكر أنه أحبها، وتمنى أن يتزوجها، وحاول أن يُقبلها فـأنفت ولطمته، وبعضها يذكر أن الشنفرى تزوجـها فعلاً، وأن بنى سلامان استقـبحوا أن يُصهر إليهم دخيل كالشنفرى، وأن أبا قـعوس كان يشعر بذلك ويتخوَّف أن يقتله أهله إن أصهر إلى الشنفرى، فـأقسَمَ له الشنفرى إن قتلوه ليقتلن به مائة منهم، وحدث أنه بعد أن تزوجها قتلوا أباها فعلاً، فأخذ الشنفرى يعد نفسه فى خفيـة لتنفيذ قسـمه ويصنع النبال لذلك، وأنه حيـنما طال ذلك استنجزته قـعسوس وَعْدَه، فقال لهما فيما قال:

كأنْ قَدْ ـ فـلا يَغْرُرْك منِّى تَمَكُّثِى ـ سَلَكْتُ طريقاً بيْنَ يربَغَ فالسَّرَدْ (١)

ومن الواضح أنه اختـلاف غير ذى خطر إلا من زاوية تأثير السـبب فى نفسه، وما ترتب على ذلك فى سلوكه وشعره، وستأتى مناقشة لهذا الجانب.

وهناك صور من اختـلاف الروايات أقل خطراً، وأقل فى مسالك الخـلاف نفسه ، ومن ذلك الاختـلاف فى نهاية حياة الشنفـرى، فبعـد أن تتفق الروايات على أنه ترك بنى سلامان ناقماً متوعداً، وأنه استطاع بغاراته المتلاحقة عليهم وترصده لهم أن يقتل

---

(١) جملة «فلا يغررك منى تمكثى» معترضة، أى لا تغـترى بتمهلى وتريثى فكأنى من شدة تصميمى على تنفيذ وعيدى سلكت فعلاً طريقى بين هذين المكانين يربغ والسـرد متجهاً إلى بنى سلامان للانتقام، وهو تعبير مألوف للإشعار بالتيقن من توقع حدوث الفعل.

منهم تسعة وتسعين رجلا، وأنهم حاولوا أكثر من مرة أن يتمكنوا منه فى كمائن ومراصد فأفلت منهم بسرعته الخارقة فى العدو، وبيقظته وحسه الشديد الإرهاف فى التنبه للخطر، وأنهم أقاموا له رصداً محكماً ذات ليلة وأنه بلغ من يقظته أنه أحس بالرصد. بعد ذلك تبدأ الروايات فى اختلاف غير كبير؛ فبعضها يذكر أنه رمى بسهمه لمجرد إحساسه بمصدر خطر دون أن يتبين شيئاً، فأصاب أحد المترصدين فقتله، وبعضها يقول: بل شك ذراعه إلى عضده، وتعود الروايات إلى الاتفاق بأنهم تمكنوا من أسر الشنفرى وتسليمه لبنى سلامان، ثم تعود إلى الاختلاف الهين حول طريق قتله، وحول اتفاق الآراء على قتله؛ فبعضها يسوق أن بعض بنى سلامان كان يذكر للشنفرى قرابة النسب والعشيرة فيرى عدم قتله، ولكن أحد الموتورين يسارع إليه بضربة تقطع يده ثم يقتلونه. وبعضها يذكر أنهم عاجلوه بأسلوب التعذيب فى الموت حتى قضى نحبه، وبعضها يذكر أن أحدهم رماه بسهم فى عينه فقتله قائلا له: «هل أُطْرِفُكَ؟» كما كان الشنفرى يقول لأحدهم حين يقتله.

● بيئةُ الشنفرى:

إذن فقد نشأ الشنفرى فى منطقة السراة، وهى منطقة جبلية فيما بين مكة والمدينة، وأبرز معالمها الجبال، حتى إنها تسمى جبال السراة، وهذه البيئة من العوامل التى تيسر لأبنائها حياة الصعلكة، أو تدفع بالمهيئين منهم إلى هذه الحياة، وذلك من جانبين؛ أحدهما أن البيئة الجبلية دائما قليلة الخصب، فتسيطر الحاجة عادة على أكثر أبنائها، وهذا بطبيعة الحال يدفع بعضهم إلى اللصوصية وقطع الطريق، ممن يكون لديهم الاستعداد النفسى والجسمى لهذه الحياة، والجانب الثانى أن المناطق الجبلية أنسب الأماكن للمطارَدين بما تيسره لهم من وسائل الحماية والتخفِّى سواء فى طياتها وكهوفها أو قممها.

فى هذه الأرض نشأ الشنفرى الأزدى، ولم تحدد الروايات وليس فى وسعها أن تحدد زمن ولادته، ولا زمن وفاته، وإن كان المرجح أنه كان فى الجيل السابق للإسلام مباشرة.

وأما البيئة الاجتماعية للشنفرى فقد كانت شديدة القسوة، وقد حالفته هذه القسوة منذ عرف نفسه، وكانت شديدة الوفاء له فلم تتخلَّ عنه حتى لقى حتفه، أو على

الأصح دفعته إلى أن يسلك الحياة التى لا بد أن يلقَى فيها حتفه وهى الصعلكة، وكما كانت القسوة وفية للشنفرى هذا الوفاء المر البغيض، فقد بادلها هو هذا الوفاء بصورة أشد مرارة وعنفاً، وآلى أن يصب هذه المرارة على الناس، وألاّ يتخلى عن ذلك، وقد التزم هذا الوفاء المقيت، حتى أودى به وفاؤه بعد أن أودى هو بكثير من الناس.

وتوضيح ذلك أن الشنفرى لم يعرف حياة الراحة والدعة قط، بل ولم يعرف حياة الاستقرار والانتماء الاجتماعى قط، فقد عدا عليه بعض العادين فى إحدى الغارات التى كانت تُغِيرها بعض القبائل على بعض، والتى كانت شائعة مألوفة فى كل أرجاء الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان الشنفرى حينئذ غلامًا صغيراً كما تصف الروايات حين أخذوه أسيراً، وإذا به يجد نفسه أسيراً فى هذا الحى من بنى فهم. وبعض الروايات تذكر أنه لم يؤخذ أسيراً، وإنما انتقلت به أمه إلى بنى فهم حين قُتل أبوه فلم تجد فى قومه نصيراً يأخذ بثأر زوجها، والذين قتلوه كما تذكر هذه الرواية هم بنو عمومته الذين أصبح الشنفرى فيما بعد ألد أعدائهم وهم بنو سلامان بن مفرج، وسواء كان انتقاله لهذا السبب أو ذاك، فالذى يعنينا أنه انتقل من بين أهله وموطنه إلى غرباء، وكان مضطراً ومكرها على هذا الانتقال، وكانت حياته فى هذا الانتقال غير كريمة ولا عزيزة فى كلا الاحتمالين؛ فحياة الأسير وحياة الجار، كلتاهما لم تكن تحظى بكرامة ابن القبيلة وعزته، بل كانت أقرب إلى الاعتباد والإذلال، وكان حتما على الأسير أو الجار أن يقبل مِن سادته أبناء القبيلة صوراً من التعالى والتحقير لا بد أن تؤذى النفس الأبية إيذاءً غير يسير، وقد كانت نفس الشنفرى شديدة الإباء، وحينئذ يمكن أن نتصور أى إيلام لها كانت تعانيه منذ صباها فى حياة الأسر أو ما يشبه الأسر.

وليت الحياة على مرارتها دامت للشنفرى فى بنى فهم، فقد كان يحتمل أن يتعود على هذه الحياة حتى تسوغ فى حلقه أو تكون قريبة من ذلك، ولكنه يتجرع المرارة من جديد، حيث يغير بنو سلامان على بنى فهم - كما تذكر الرواية الأولى - فيأسرون رجلاً منهم. ويدخل الفهميون فى مفاوضة مع السلاميين، تنتهى بأن يقبل السلاميون فديةً مكان الفهمى.

وهكذا كُتب على الشنفرى أن يترك بنى فهم بعد المدة التى قضاها بينهم، والتى

يُعتقد أنها سنوات غير قليلة، والتى خرج منها بأصدقاء من بنى فهم منهم صديقه فى الصعلكة ورفيقه فى السطو والغارات «تأبط شراً». يخرج من بنى فهم ليعيش أسيراً فى بنى سلامان.

وليس من شك فى أن معيشة الشنفرى فى بنى سلامان كانت شديدة القسوة على نفسه، بالغة الإيلام والإيذاء لها. وليس من شك أيضاً فى أن النقمة التى يحملها الشنفرى لبنى سلامان لم ترتبط بسبب واحد محدد، وإنما كانت لآلام تجمعت فى نفسه حتى ملأتها حقداً وبغضاً لبنى سلامان. والروايات تذكر علاقة بين الشنفرى وفتاة من بنى سلامان، هى ابنة الرجل الذى كان الشنفرى يعيش عنده، وبعض هذه الروايات يشير إلى أن الشنفرى كان يحب هذه الفتاة التى تسمى قعسوس، وأنه حين أراد أن يتزوجها ترفعت عنه، وبعضها يذكر أن الشنفرى كان يعتقد أنها أخته فطلب منها أن تخدمه فى بعض شأنه فأنفت من ذلك وصفعته لأنها تعلم أنه أسير وليس أخاها. وليس شيء من ذلك بالمستبعد ولا بالمستنكر، ولكن المستبعد أن يكون الشنفرى قد حمل لبنى سلامان يوماً ما شيئاً من ود أو إلف أو حتى رضا، فإن ما حدث بعد ذلك - وهو ما تُجمع عليه كل الروايات - أن الشنفرى أقسم ليقتلن من بنى سلامان مائة رجل، لا يصلح نتيجة طبيعية لمجرد سبب من الأسباب السابقة، فليس مجرد رفض فتاة الزواج من شخص، أو حتى صفعها إياه لأى سبب كافياً لأن يحمل لقومها هذا البغض العارم المدمر، وهذا السخط الجامح العاصف، ولكن المنطقى الذى يستقيم مع طبائع الأمور أن نتصور أن الشنفرى قد عانى من إذلال بنى سلامان، وامتلأت نفسه بالمرارة من هَوانه بينهم، ولكن شيئاً معيناً جعله يتحامل على نفسه، ويتحمل ما يقاسيه منهم، هو تعلقه بهذه الفتاة التى مَنَّى نفسَه بحبها، وعلق آمالاً طوالاً عراضاً على حبها، متصوراً أنها ستبادله حبه وإعجابه، وستكون عزاءً له عمَّا يقاسيه من قومها، ومن المنطقى أيضاً أن الفتاة لم تصده عن حبها وإعجابه بها، وما لها أن تصده وكل فتاة تتمنى أن تكون موضع إعجاب الناس أجمعين؟ ولم لا تبادله شيئاً من عواطفه وهى فى حاجة إلى تسلية فى ذلك المرعى المقفر من الشباب إلا أمثال ذلك الشنفرى؟ فليكن الشنفرى بالنسبة إليها خيراً من لا شئ، وليكن تمضيةً للفراغ، وتسلية للوحدة، على أنه لا يخلو من مواهب تثير الإعجاب إن لم تثر

التطلع؛ فهــو عدَّاء لا يُلحق ولا يُسبق! ولم لا تشغل جـانباً من نهارها تتـابع حركة رجليه اللتين تسابقان الريح! وهو شاعر عمـيق رقيق، فلماذا لا تمتع روحها بشاعريته وخاصة حينما يشير إلى جمالهـا وأنوثتها وحنينه الجارف إليها، قد يكون قبيح الشكل دميم الوجه منكر الشفـتين، ولكن إهابه يحوى شخصية قـوية صارمة ذات إرادة أشد قوة وصرامة، ولئن نفرت هى من شكله وحَسَبه فيهم، فإن أنوثتها لا تستطيع أن تنفر كل النفور من هذه القوة الصارمة العازمة فى شخصه.

وهكذا مضت الحياة حيناً من الدهر بين الشنفرى وَقَعْـسوس فيما يمكن أن يتصوره متصوِّر، وهى تمثل بالنسبة إليه الشعاع الوحيد الذى يلمع فى ظلمات حياته، والأمل الوحيد الذى يجعل للحياة عنده قيـمة ومعنى، والدواء الوحيد الذى يمكن أن يشفى جراح كرامـته وعزته وما يعانى من هوان المـقام فى بنى سلامان، وإذا لم يشفـه فهو على الأقل الدواء الوحيد الذى يعينه على الاحـتمال ، وهكذا أخصبَ هذا الأمل فى نفس الشنفرى وأفـرخ، فصوَّر له حـياةً باسمـة ومستـقبلاً لا يخـلو من بريق، حتى أضحت قعسوس أمنية حياته ومصباح آماله.

وأما هى فـقد كان الشنفرى بالنسـبة إليها مـعيناً على حياة جـافة خاوية قـاسية، تستغل عواطفه نحوها مسخِّرة إياه، مستنزفـة جهده، ليتحمل عنها كل ما تتطلبه حياة الرعى وجهد البـادية، وليكون مصدر تسلية وترفـيه ومتعة نفـسيه، ويمكن أن تمضى الحيـاة بينهما هكذا أمـداً غير قصـير، ويمكن أن يتدرج الشنـفرى من مجرد الخـيال والأحلام نـحوها إلى درجـة أو درجات من الصلة البـريئة. ويمكن أن يحـاول إبداء رغبته فى الاقتران بها مُلمِّـحًا أو مصرحاً. ويمكن ان تصده هى أو تماطله فى لين أو عنف، ولكن ذلك لا يدفعه إلى ثورة أو نقمة، أما الذى يمكن تصوره دافعاً للشنفرى إلى ثورته العارمة المدمرة فـهو أن يكتشف فى وضوح أنها كانت تخـدعه ساخرة منه فيما بينها وبين نفسها، أو أن يكتشف أنها كانت تخون عواطفه ساخرةً منها، موجهةً عواطفها نحو فـتى من قومها تراه كفؤاً لها، وفى كل الأحوال سنجـد خديعتها إياه وسخريتها منه، من أهم مشعلات النقمـة فى نفسه وليس مجرد رفضها إياه، أو حتى تعاليها عليه. ومن المنطقى أيضاً أن قومها بنى سلامان تناقلوا حب الشنفرى لقعسوس

وتطلعه إلى الاقتران بهـا ساخـرين متندرين من هذا العبد أو الخادم الذى تبلغ به الوقاحة أن يتطلع إلى درة من درر بنى سلامان، ولم يكن وضع الشنفرى الاجتماعى وحده هو مادة السخرية والتندر، بل إنهم سيجدون كثيرا مما يتندرون به ويتفكهون حينئذ، ومن ذلك هذا القبح الشديد فى خلقة الشنفرى، وهذه الدمامة الكئيبة فى وجهه، وهذه القسمات المنكرة فيه، التى جعلت الرواة يصفونه بأنه من أقبح الناس وجهًا، وكذلك هذه النحافة الشديدة التى تجعله مجرد هيكل من عظام يابسة ضامرة.

ولم يكن ذلك وحده على إيلامه لنفس الشنفرى كل ما أشعل نقمته وأوغر صدره، وإنما كان هذا الحادث على مرارته فى قلبه وكراهته مجرد انتكاسة لجراحه، وإزاحة للغشاوة عن بصره ليعود بصره حديداً يرى كل ما يعانيه من بنى سلامان، ولتعود ذاكرته شديدة الوعى والاسترجاع لكل ما مرّ به من آلام وإيذاء.

ولئن كان ما عاناه من بنى سلامان مؤلماً مؤذياً لكل نفس، فإنه فى نفس الشنفرى أشد إيلاماً وإيذاءً من ناحيتين: إحداهما أن نفس الشنفرى ليست ككل النفوس فى إبائها الضيم وشعورها بالهوان، كما يقول هو عنها:

ولكن نفسًا حرة لا تقيم بى ... على الضَّيم إلا ريثما أتحول

والناحية الأخرى أن بنى سلامان كانوا أقرباء الشنفرى فى النسل، حيث إنهم فرع من الأزد، كما كان بنو الحجر عشيرة الشنفرى من الأزد أيضاً، وإساءة القريب وخاصةً صدور الإهانة والتعالى منه أشدُّ إيذاءً للنفس مما لو صدرت من الغرباء، كما يقول الشاعر العربى القديم :

وظُلْمُ ذى القُرْبَى أشَدُّ مَضاضةً ... على النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الُحسامِ الُمَهنَّدِ

ومهما يكن من شىء، فقد تجمعت كل عوامل النقمة فى نفس الشنفرى[1] على بنى سلامان خاصةً، وبعد أن كان أمله الوحيد فى الحياة يبرق من خلال ديارهم سواء تمثل هذا الأمل فى شخص قعسوس، أو فى أن يكون واحداً منهم، له مثل ما لهم من كرامة وعزة، بدل ذلك أصبح أمله الوحيد فى الحياة أن يشفى الغليل المتأجج فى

(١) بعض الروايات تذكر أن بنى سلامان كانوا قد قتلوا والد الشنفرى فأصبح طالباً للثأر منهم.

نفسه من أعدائه بنى سلامان، وقـد كان غليلاً يشع اللهب، شنيع التأجج، وما كانت لتطفؤه مياه الأرض، وإنما تطفـؤه دماء بنى سلامان، ولن تطفئه اليسـير أو الكثير من دمائهم ، وإنما تطفؤه الأنهار المتدفقة من هذه المادة. فما وعى التاريخ نقمة كانت أشد من نقمة الشنفرى على بنى سلامان، فقـد آلى على نفسه وألزمها أن يقتل منهم مائة نفس ، ولم يكن مجرد العدد أو القتل كل مظهر النقمة، وإنما المظهر الحقيقى أنه نذر حياته كلها، وأفرغها من كل شىء إلا من حملته على بنى سلامان.

وأهمية هذه الأحداث وأماكنها ليست لذاتها، وإنما لمدى تأثيرها فى نفس الشنفرى وحياته.



الشنفرى والصعاليك

إذا كانت حياة الصعاليك تقوم على القـوة فى مختلف جوانبها المادية والمعنوية، أو المباشرة وغير المباشرة، وكذلك كـيانهم فى المجتمع قام على هذه القوة؛ فإن الشنفرى حظى من هذه القوة - فى كل جـوانبها على الإطلاق - بما لم يحظ به صـعلوك آخر على الإطلاق أيضاً. وأن تجتـمع جوانب هذه القوة كلها فى شـخص واحد، وبدرجة يتفوق بها فى كل جانب على كل أفراد طائفته، فذلك وضع يجعل صاحبه فى المكان البارز المرموق، وهذا ما كان فيه الشنفرى - ليس فى حـياته ومجتمعه فحسب - وإنما فى تاريخه وفيما ولى مجتمعه من مجتمعات وعصور.

أما فى عـصره: فقد ضُـرب به المثل فى أرجاء الجزيرة العـربية كلها فى أكـثر من جانب من جوانب القـوة كما سيأتى، وليـس هذا بالشىء اليسير. وأما بعـد عصره: فمن الواضح أن شخـصيته بكل مـقوماتها ظلت حـتى اليوم تثير التـعجب، أياً كان الحكم على سلوكه، سـواء فى هذا الإعجاب والتعـجب الرواة والدارسون والمتناقلون لأخباره، وآية ذلك أن أخباره وصلت إلينا.

فقد مرت أخبار الحياة الجاهلية وهى تجتاز العصور بعصر كان كفيلاً بأن يقبرها، أو يقبـر كثيـراً منها، وخـاصة أخبـار الصعاليك، وهـو العصر الإسـلامى الأول، فإن الصعلكة بجرائمها وسلوكها العدوانى تتعارض تعارضاً أساسياً مع الإسلام وتشريعه. ولذلك وضع الإسلام لجرائمها حداً معروفاً بعقوباته، وكان هذا الإنكار الشديد الذى صبَّه الإسلام على الصـعلكة كفيلاً بأن يكون حاجزاً يمنع انتقال هـذه الحياة وأخبارها إلى العصـور التالية لولا أمران: أحـدهما: سماحـة فى الدين الإسلامى استفـاد بها البحث العلمى، وهى أنه لم يحـجر على الرواية وتناقل الأخبار الجـاهلية، ولم يمنع تناقلها فى أجَلّ مجالس العلم، وأعظمها وقاراً. ولم يَحُلْ دون تدوينها فى الكتب - ولو كانت تتعلق بأشد الأحداث والأفعال بغضاً لدى الإسلام - ونظرة الإسلام حينئذ يسيرة واضـحة، وهى التفرقـة بين مزاولة السلوك والإخبار عن هذا السـلوك، ويعبِّر العلماء القدامى عن هذه التفرقـة بقولهم «ناقلُ الكُفْرِ ليس بكافر» ولئن كنا نرى اليوم هذه التفرقة يسيرة، فإنها لم تكن كـذلك فى بداية الإسلام حينما كان الحماس الدينى

يملك على المسلمين كل تفكيرهم وكل حياتهم، خاصةً وأن هذا الحماس كان منصباً على نقض الحياة الجاهلية، وخاصة منكراتها كالصعلكة. هذه السماحة فى الدين الإسلامى أتاحت للتاريخ والبحث العلمى أن يُلم بشىء غير قليل عن الحياة الجاهلية ومنها أخبار الصعاليك.

والأمر الثانى الذى كان من أسباب وصول أخبار الصعاليك إلينا، أن هذه الأخبار بما فيها من طرافة أو جوانب تثير الإعجاب والتعجب قد فرضت نفسها على الرواة والمؤلفين والمتناقلين، حيث يجدون أن هذه الأخبار من أثمن ما يروونه وما يتناقلونه، ومن أكثره إثارة للإعجاب والتعجب معًا، ولذلك نلاحظ أن الأخبار التى وصلت إلينا لم يكن معظمها مقصودا به التاريخ لذاته، أو مجرد الرواية، وإنما رُوى لأنه يحمل خبراً طريفاً، أو حادثاً يثير قدراً كبيراً أو صغيراً من الغرابة والخروج عن المألوف.

وقد كانت أخبار الشنفرى كلها تقريباً تثير التعجب والاهتمام، حتى أخذت طابعاً يشبه الأساطير، وأصبحت شخصيته نفسها محاطة بهالة كتلك التى تحاط بها الشخصيات التى تنظر إليها الشعوب على أنها نماذج فذة من البطولة والمقدرة الخارجة عن المألوف، ذلك لأن كل مقومات شخصية الشنفرى كانت فذة إلى درجة فوق الوضع المألوف، سواء من الناحية الجسمانية أو النفسية أو العقلية، ويمكن أن نُلِمَّ فى إيجاز **بأهم جوانب قوة الشنفرى فيما يأتى:**

١ ـ قوة الإرادة:

من أبرز ما يميز الشنفرى هذا التكوين النفسى العجيب، الذى يحمل من قوة الإرادة وصلابة العزيمة ما يثير الإعجاب على مر العصور، والغرابة ليست فى إرادته لذاتها؛ فالصعاليك جميعاً يحملون هذه الإرادة، ولكن فى درجة قوتها، هذه الدرجة التى تكاد تفوق التصور، ومصدر هذه القوة أنه كان يتحكم فى نفسه من جميع زواياها تحكمًا يجعله هو المسيطر والموجه لها، وليس هو المَقود أو الخاضع لها؛ فغرائزه جميعاً مِلْكٌ له، وليس هو المملوك لها، وانفعالاته أيضاً كذلك، والروايات تجمع على هذه الحقيقة. وهو نفسه يبدع فى شعره فى تصوير سيطرته على غرائزه وانفعالاته، فهو يصف لنا كيف يقاوم الخوف حتى لا يكاد يشعر به، ويتحدث عن ذلك فى صور وأحداث كثيرة منبثة فى شعره كله، ويصف كيف يقاوم الجوع بأسلوب

طريف، وهو أن يتجاهل الشعور به، وكلما ألحَّ الجوع فى تذكيره ألح هو فى التجاهل، حتى ينتصر، وإذا به يكاد ينسى أنه يعانى جوعاً شديداً، ويصف أيضاً صراعه وعدم مبالاته بالبرد الشديد الذى يدفع المرء إلى تحطيم قوسه التى يدافع بها عن حياته ليستدفئ بها، وكذلك صراعه وعدم مبالاته بالحر الرهيب الذى يجعل الأفاعى تتململ من رمضائه، وهكذا يصف لنا إرادته الجبارة فى صراعه مع كل شىء داخل نفسه أو من حوله، وهو فى كل ذلك لا يهدف إلى وصف ذلك لذاته، وإنما لينبىء أن كل هذه العوائق لم تكن لتثنيه عن عزمه، أو لتحول بينه و بين ما يريد؛ فلا الخوف ولا الجوع ولا الحر ولا البرد، ولا شىء قط يحول بينه وبين أن ينفذ ما صمم عليه، وأن يحقق ما عقد عليه العزم، ومن آثار ذلك أنه كثيراً ما كان يُغِير بمفرده فيحقق من غارته كل ما يريد، كما كان يغير على بنى سلامان حتى قتل منهم تسعةً وتسعين رجلاً.

٢ـ القوة الجسدية:

وتتمثل هذه القوة فى سرعة العدْو، فقد امتاز الصعاليك بأن عدداً كبيراً منهم قد وُهبوا فى تكوينهم الجسمانى مقدرة على العدو تكاد لا تصدق ، ولكن الروايات تجمع عليها. وليست الغرابة فى سرعة العدو ذاتها، ولا فى العدد الكبير الذى كان يتمتع بهذه المقدرة من الصعاليك، فذلك يمكن أن يوجد فى كل عصر وكل مجتمع، ولكن الغرابة فى درجة هذه المقدرة، فبعضهم تُجمع الروايات على أنه لم تلحقه خيل قط، وبعضهم تتحدث عنه الروايات فى بعض الأحداث بأن الخيل سابقته لتلحقه يومًا كاملاً أو دون ذلك فلم تلحقه، ونحو ذلك من الصور التى يجعلها عدم الإلف موضع الغرابة، ولكنها مع ذلك ليست مناقضة للعقول، بل ولا للواقع.

وهؤلاء العداءون من الصعاليك كانوا يتميزون جميعًا بصفات جسمية معينة: أولها قوة التركيب الجثمانى، ثم أمر آخر مشترك بينهم هو النحافة وضآلة الأجسام. فمن الواضح أن ثقل الجسم لا يعين صاحبه على هذه الحركة البالغة السرعة، والتى تحتاج إلى الخفة، وصغر الحجم، وقد وصفوا هم أجسامهم بطريق مباشر أو غير مباشر خلال شعرهم، فإذا هم يتفقون فعلاً على صفة واحدة هى نحافة الأجسام، كما يقول عبيد بن أيوب العنبرى عن نفسه:

وأينَ ضـئيـلُ الشخصِ يظـهر مـرةً   ويَخْفَى مـرارًا ضامرَ الجـسم عاريًا

ويقول الشنفرى:

وآلفُ وجهَ الأرض عند افـتراشـها   بأهدأ تُـنبـيـــهِ سَناسنُ قُـــحَّلُ[1]

ويعلل عروة بن الورد نحـول جسمـه بأنه يفرقه من جوده وسـماحتـه بالطعام فى أجسام كثيرة. كما سبق فى قوله «أقسم جسمى فى جسوم كثيرة».

وأما عبيـد بن أيوب، فيصرح بأن حياة الصعلكة هى التى جـعلت جسمه فى هذا النحول، حتى لو أن حمامة حملته لطارت به، كما يقول:

حـملتُ عليـها مـا لَوْ أن حمـامـةً   تُحـمَّـلُهُ طارتْ به فى الجــفـاجفِ

رُحَـــيْــلاً وأنْطـاعـًـا وأعْظُـمَ وامقٍ   أضَرَّ به طَولُ السَّرَى في المَخاوفِ[2]

ورغم أن حياتهم فى الصعلكة بما فيها من جهد وفاقة وجوع وحرمان كانت تفرض عليهم أن يظلوا ناحلى الأجسام، إلا أن العدّائين منهم كانوا يحرصون حرصًا واضحًا متعمدًا على التزام هذا النحول، بحيث تبقى أجسامهم رقيقة خفيفة الحركة، لا تحمل ما يثقلها أو يعـوق شدة انطلاقها حينما تندفع فى العَـدْو، وقد بلغ من حرصهم هذا أنهم كانوا يتحاشون أن ترتوى بطونهم من الماء حين يشربون، وخاصة حينما يكونون فى غارة، فهم أثناء الغارة أشد ما يكونـون حاجةً إلى العدْو، فلا أقلَّ من أن يجعلوا أجسامهم مهيأة له فى كل لحظة.

وقد اكتملت فى الـشنفرى هذه المقدرة حتى بلغت أقصى ما عـرفه العرب من قوة وسرعـة فى العدْو من جهة، وصـبر وطول نفس أثناءه، بمعنى أنه من حيث السـرعة ذاتها بلغ أقصى درجاتها التى عرفها الناس، ومن حيث المقدرة على تحمل العدو دون كلل إلى فـترة طويلة لم يعـهدها الناس، بلغ أقـصى ما يعـهده الناس أيضًـا، حتى تتحدث بعض الروايات أن الخيل لاحقته يومًـا كاملاً فلم يَهِنْ ولم تلحقه الخيل. وقد يكون فى هذا مبالغة، ولكنها تدل على مدى شهرته بالعدْو ونتيجة لهذا كله ضرب به

---

(١) آلف: أتعود. الأهدأ: شديد الثبات يعنى جسمه. تنبيه: ترفعه. سناسن: رءوس فقار الظهر. قحل: جافة.

(٢) عليها: يعنى الناقة. الجفاجف: الأرض الغليظة. والشطر الأول من البـيت الثانى مضمونه أن جسمه من جميع النواحى لا يعتبر جسمًا. والشطر الثانى منه تعليل لنحوله.

العرب المثل فى العدو، وضَرْبُ المثل لا يأتى عفـوًا أو جزافا، وإنما يكون حينما يبلغ صاحبه قـمة ينفرد بها فيمـا ضرب به المثل فيه، وكذلك كان الشنفـرى، فقد بلغ من قوته وسرعـته واحتماله فى العـدو درجة لم ينافسه أحـد فيها، فقـالوا فى أمثالهم: «أعدى من الشنفرى»، حتى إن بعض الروايات تذكر أن السليك بن السلكة ضُرب به المثل أيضا فى العـدو، فتنبرى روايات أخرى كـما يذكر صاحب المفضـليات تؤكد أن الشنفرى هو الذى انفرد بضرب المثل به فى العدو.

والشنفرى يحدثنا فى شـعره - وخاصة فى اللامية - عن نحـوله وتكوينه الجسمى الذى ساعده على هذه المقدرة العجيبة فى العـدو، ويحدثنا أيضا عن سرعته ومقدرته فى عدوه، فى صور كثـيرة يكسو بعضها بخياله الـشعرى، ومن ذلك أنه يسابق القطا إلى الماء، ويظل فى سباقه مع هذا الطير، فـإذا هو السابق. حتى إنه يشرب الماء حتى إذا جاء القطا لم يجد إلا سؤره وبقايا شرابه كقوله: «وتشرب أسآرى القطا».

٣ - الشاعرية:

لم يختلف النقاد فى أن الشنفرى من الصفوة الممتازة فى شعراء العرب. وأنه مهما كان الاخـتلاف فى ترتيب الشعـراء ووضعهم فى طبـقات ودرجات، فهـو دائمًا فى المقدمة بالنسبة لشعراء العربية قاطبـة، سواء كان فى الطبقة الأولى أو فى طبقة تليها، ولكن الذى يعنينا فوق ذلك أن الصـعاليك - كما أشـرنا فيما سبق - امـتازوا بمنهج خاص فى شعرهم، وهذا المنهج لفت نظر المجتمـع إلى شعرهم وجعله يحظى بأهمية خاصة، وقد كان الشنفرَى أبرز الصـعاليك فى شاعريته، وكان أبرزهم فى هذا المنهج الذى لفت أنظار المجتمع وأثار إعجابه.

وحيث إن هذا الموضـوع يمثل الغرض الأسـاسى لهذا البـحث، لذلك لا نرى ما يدعو إلى بسط القول فيه، اكتفاءً بما سيأتى من توضيح وتفصيل له.

ولكن الذى يعنينا فى هذا الموضع أن هذه الشاعرية التى وُهبـها الشنفرى كانت من أبرز عوامل شهرته، ودعائم شخصيته التى أخذ ذكرها يزيد فى أرجاء الجزيرة العربية، وما زال رنينها تتجاوب به الروايات، وتحمل صداه الكتب فضلاً عن تداوله بين ألسنة العصور وآذانها.

٤ - عقلية الشنفرى:

اشتهر الشنفرى بعقلية شديدة اليقظة والعمق والحركة حتى إن الروايات تذكر أنه كان يضرب به المثل فى الحذق والدهاء[1]، ويعنون بالحذق حدة الذكاء، ويعنون بالدهاء حسن التصرف فى المواقف المختلفة، وحسن التخلص والاحتيال للخروج من المآزق، وحينما يجتمع الأمران فى شخص: الذكاء وحسن التخلص والتصرف يكون فى درجة لامعة مرموقة، فإذا بلغ من ذلك إلى الدرجة التى يضرب به المثل كانت فيه أهم الدعائم التى ترشح صاحبها لأن يكون من الشخصيات التى ترمقها الشعوب، وتتناقل أخبارها الأجيال، أو من يسمونها بالشخصيات الأسطورية؛ فهذه الشخصيات تعتمد على بعض الصفات التى يتمناها كثير من أفراد المجتمع، ولكنهم لا يحظون بها، فإذا هم يجدون شخصًا قد حصل منها على قدر عظيم لا يُتصور توافره فى شخص عادى، عندئذ تتطلع نفوس المجتمع إلى هذا الشخص، وتتركز خيالاتهم على شخصه، وفى أغلب الأحيان تضيف هذه الخيالات إلى أخبار هذه الشخصية قليلا أو كثيرًا من المبالغات، وقد تختلق أخبارًا وحوادث تنسبها إليه ولا وجود لها. وقد حظى الشنفرى أيضًا ببعض المبالغات فى بعض الأخبار المنسوبة إليه - ما فى ذلك شك - فإن فى بعضها شططًا وفى بعضها ما لا تستسيغ العقول حدوثه بالصورة التى روى بها؛ كمطاردة الخيل هذه الفترة الطويلة التى ذكرتها الروايات، فإن عدم لحاق الخيل به قد يكون متصوَّرًا ومقبولاً، ولكن استمرار المطاردة يومًا كاملا هذا ما لا يهضمه العقل فى يسر، وحين نفترض أن لهذه الأخبار أصلا من الحقيقة فلن يلتوى علينا تفسيرها، حيث يمكن أن نتصور مثلا أن المطاردة حقيقية، وأن عدم اللحاق به حقيقة أيضًا، ولكن المطاردة لم تكن متصلة أو مستمرة كما يوحى إطلاق الروايات لها، فهنا يمكن لمثل الشنفرى أن يستخدم ذكاءه ودهاءه الذى ضرب به المثل، فيستطيع أن يضلل مطارديه، وأن يشق عليهم بأنواع من الخدع والحيل، كأن يتسلق مرتفعًا لا تستطيع الخيل أن تتسلقه ثم يجتاز هذا المكان إلى مكان آخر، مختصرًا طريقًا طويلا، على الخيل أن تقطعه حتى تستمر فى ملاحقته، ونحو ذلك من الفروض التى لا تبعد عن العقول، ولا عن الواقع نفسه.

ومهما يكن من شىء، فإن هذه المبالغات والتزيدات التى نفترض تخللها للأخبار

---

(١) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١/ ١٨٧.

والأحداث المنسوبة للشنفرى ومثله، تحمل فى طياتها دلالة قوية على أن صاحبها كان شخصًا غيرعادى، وأنه صدرت منه أعمال ومواقف كانت عند الناس كبيرة وغير عادية حتى أحاطوها بهذا الخيال، وأنه كان شخصًا غير عادى حتى ارتبطت به الأساطير.

وننتهى مما سبق كله إلى أن الشنفرى كان شخصية غير عادية، وأن هذه المزايا التى تفوق فيها أو انفرد بها كانت موضع أمانى أفراد المجتمع؛ لأن حياتهم وظروف بيئتهم كانت تدعو إلى ذلك، وحين اجتمعت للشنفرى هذه المزايا بدأت أنظار المجتمع تتجه إليه، وخيالاتهم تسرح نحوه، بعضهم مُكْبِر مُعْجَب، وبعضهم خائف متوجس، وبعضهم متطلع متأمل، ولكنهم جميعًا لا يملكون إلا أن يضمروا له التهيب والتقدير.

أمرٌ واحد ضنت به الظروف على الشنفرى، ولم تسمح له أن يحظى به، وهو الانتماء إلى قوم يعيش بينهم، وترتبط بهم عواطفه، وهذا الشىء غيَّر كل شىء فى حياة الشنفرى، وفرض عليه كثيرًا من جوانب حياته التى عُرف بها، وهذا الشىء لو تيسر للشنفرى فلعله كان سيرسم له حياة أخرى تختلف عن حياة الصعلكة، فقد كان يمكن أن يصبح سيدًا مرموقًا فى قومه، أو أن يصبح فارسًا لامعًا من فرسان العرب، أو شاعرًا يلتف الناس من حوله ويتنافسون على القربى منه والزلفى إليه. ولكن حرمان الشنفرى من العيش فى قومه، ثم إلزامه أن يعيش حياة العبيد الأذلاء، أو الأسرى المملوكين، لم يترك أمامه من سبيل سوى أن يحتمل ما استطاع الاحتمال، فلما ضاقت نفسه بالاحتمال هجر الناس وحياتهم ومجتمعاتهم - بكل ما تفيض به نفسه من نقمة وحقد على الناس وحياتهم - إلى حياة أخرى يستطيع أن يخلو فيها إلى نفسه وآلامه وهمومه، ويستطيع أيضا أن ينتقم لنفسه من الناس جميعًا بكل أساليب الصعلكة من غزو وسطو وقطع للطريق، وأن ينتقم لنفسه من الذين تركزت عداوته عليهم وهم بنو سلامان، حتى قتل منه تسعة وتسعين رجلا.

نهاية الشنفرى

وانتهت حياة الشنفرى بقصة تتفق الروايات على هيكلها وإن اختلفت فى بعض تفاصيلها، ومؤداها أن أعداءه طالما تربصوا به ورصدوا له فلم يتمكنوا منه، وكان يعينه على التخلص من الأخطار أمران: أحدهما يقظته العجيبة فى الإحساس بالخطر ثم التخلص منه، حتى ضرب به المثل فى الحذق والدهاء[1]، والأمر الآخر سرعته الخارقة فى العَدْو حتى ضرب به المثل أيضا فى العدو فيقال: «أعدى من الشنفرى»[2] وينقل الأصفهانى صورة من مقدرة الشنفرى فى العدو فيقول «ذُرِع خطوُ الشنفرى ليلةَ قُتل فوُجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة، ثم الثانية سبع عشرة خطوة»[3].

ولما حانت منية الشنفرى قدِّر لأعدائه أن يظفروا به، فقد ترصَّد له ثلاثة منهم ذات ليلة، هم خازم الفهمى، وأسيد بن جابر السلامانى، وابن أخ له لم تسمه الروايات، فمر عليهم الشنفرى فأحس بهم،وكان لا يحس خطراً ولا يرى سواداً إلا رمى صوبه، فرمى، فشكَّ ذراع ابن أخى أسيد إلى عضده، فلم يتأوه، فقال الشنفرى «إن كنتَ شيئا فقد أصبتك، وإن لم تكن شيئا فقد أمِنتك» واستمر فى سيره حتى أصبح على رأس الرصَد، وكانوا منبطحين على الأرض، فلما دنا منهم قال أسيد لخازم: «أسلل سيفك»، ولكن الشنفرى كان إلى سيفه أسرع، فأهوى به إلى خازم، ولكنه لم يصب غير أصبعين من يده. وحينئذ كانوا قد أطبقوا عليه، ولكن الشنفرى استطاع أن يصرع اثنين منهم تحته، هما خازم وابن أخى أسيد، وجاء أسيد فنزع سلاح الشنفرى منه، حيث استطاع المصروعان أن يتشبثا بالشنفرى وهما تحته، فشلا حركته، وحين استطاع أسيد أن يجرده من سلاحه أصبح فى قبضتهم ولكنه لم يستسلم، فأمسك أسيد برِجْل ابن أخيه وقال: رجلُ من هذه؟ قال الشنفرى مغررا به: هى رجلى، فقال ابن أخى أسيد: بل هى رجلى يا عم، وحينئذ قبضوا على الشنفرى ونقلوه إلى قومهم، وأرادوا أن يشفوا نفوسهم المتأججة بالنقمة عليه، فبدأوا بتعذيبه نفسياً

(١) انظر شرح الخطيب التبريزى لحماسة أبى تمام ١/ ١٨٨

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٤٦

(٣) الأغانى ٢١/ ١٨٥ . وذرع: قيس. والنزوة: القفزة.

وجسدياً، فقالوا له: «أنشدْنا»، يريدون: أسمعنا من شعرك، قال: «إنما النشيد على المَسَرَّة» فذهبتْ مثلاً. ثم ضربوا يده فأصيبت ولم تنفصل عنه، فقال فى ذلك شعراً يرثى يده، ويفخر بما أدته من عظائم ومشاهد، ثم قال له قائلهم: أأطرِفُكَ؟ قال الشنفرى «كذلك كنّا نفعل» وكان إذا أراد قتل واحد منهم قال له: أأطرفك؟ ثم يرمى عينه. ثم قالوا له حين أرادوا قتله: أين نقبرك؟ فإذا هو يستنكر أن يقبروه، وهو يعلم أنهم لا بد أن يجتزوا رأسه ويفصلوها عن جسده، لتكون راحة لنفوسهم وشفاءً لقلوبهم، فيقول لهم فيما يشبه السخرية العميقة المدلول: إن ما يبقى بعد رأسه ليس ذا شأن ولا يستحق الاهتمام به، وذلك فى قوله:

لا تقبروني إنَّ قبري مُحَرَّمٌ عليكم، ولكن أَبْشِرى أم عامر[1]

إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغُودر عند الملتَقَى ثَمَّ سائرى[2]

هنالكَ لا أرجو حياةً تَسُرُّنى سمير الليالى مُبَسَّلاً بالجرائر[3]

وقد أثرت هذه الأبيات بطرافتها وجرأتها وعمقها فى نفوس القدامى من النقاد والمؤلفين، فحرص معظمهم على إثباتها فى مؤلفاته.

وبعد ذلك قتلوه.

* * *

وقد رثاه رفيقه وصديقه تأبط شراً معدِّداً بعض مآثر الشنفرى وآثار شجاعته، معاهداً إياه أن يبقى وفياً للصعلكة وغاراتها، وألاَّ ينسى ثأره للشنفرى، ومن هذا الشعر قوله:

على الشنفرىَ سارِى الغَمام ورائح غزيرُ الكُلَى، وصَيِّبُ الماء باكِرُ

---

(١) الأغانى للأصفهانى ٢١/ ١٨٢، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٧٠. وأم عامر: كنية الضبع وهى مشهورة بأكل الجيف، يبشر الضبع بأنه سيكون طعامًا لها. وهو يرفض أن يدفنوه تعففًا أن يكون لهم عليه أى صنيع حتى فى دفنه.

(٢) الملتقى: مكان الموت، وثم: هناك، يعنى أن جسدى بدون رأسى ليس مهما.

(٣) تكملة للبيت السابق يقول: إن مما يزهدنى فى الدفن أننى لا أنتظر نعيما ولا سعادة فى قبرى بل على العكس ينتظرنى العقاب الطويل المدى على جرائمى؛ ففى البيت إشارة إلى إيمانه بالثواب والعقاب فى الآخرة. وسمير الليالى: يعنى طوال الليل، ومبسلا بالجرائر: يعنى مرهونًا بالجرائم.

عليكَ جــزاءٌ مـثْلَ يومِكَ بالجــبــا وقد أُرهفـتْ منك السيوفُ الـبواترُ

فـإنك لو لاقــيْـتَنى بعــد مـا ترى وهل يُلْقـينْ مَن غَـيَّـبــتْـه المقــابرُ

لألفــيْـتَنى فى غـــارةٍ أنتـمى بـهـا إليـكَ وإمَّــــا راجـــعًــــا أنا ثـائرُ

ففى البيت الأول يدعـو لقبر الشنفرى بأن يسقى من الغـمام الغزير الماء. والكلى: جمع كلوة وتطلق على المنخـفض من السحاب ويعنى بها الماء نفســه، والباكر: الذى يستقبل النهار فى أوله.

وفى البيت الثانى الجـبا: موضع بين مكة والمدينة، يشير إلى موقـعة للشنفرى فى هذا المكان، وإلى أن سيوف الشنفرى يومئـذ أرهفت، يعنى سالت بالدماء الغزيرة من الأعداء، قائلا إنه يكفى من الغمام أن يمطر قبر الشنفرى مقدار هذه الدماء إذن يكون سقيًا عظيمًا غزيرًا.

وفى البيتين الأخـيرين يقول: إنك لو لاقيتنى - على افتـراض - لقاء الموتى فإنك ستجـدنى بين حالين لا ثالث لهما: إما مزاولاً لـغارات الصعلكة وفاءً لرفقتنا فـيها، وإما منتقما لك، وثائرًا لدمك من قاتليك.

* * *

هكذا انتهت حـياة الشنفرى، ولكن الروايات جمـيعًا تُصِرُّ على عـدم الاقتناع بأن الموت أخبا هذه الشعلة، وأسكن هذه العاصفة، فتضيف إلى الشنفرى فترةً لاحقة بعد موته، وكـأنها امتداد لحـياته، وذلك أنه كان قد أقـسم ليقتلن من بنى سلامـان مائة رجل، وكان حين أدركه الموت لم يقتل إلا تسعة وتسعين، فتؤكد الروايات بإجماع أن أحد بنى سلامان عثرت رجله فى جمجمة الشنفرى فعقرت فمات، فكملت به المائة. بل إن بعض الروايات تتحـدث عن الشنفرى بعد موته وقبل أن تكـمل المائة وكأنه ما زال متـربصًا أو متحينا أن يُوفِى بقـسمـه، وهذه رواية الأصفهـانى تقول: «فـقتلوه وصلبوه؛ فلبث عامًـا أو عامين مصلوبًا وعليه من نذره رجل، فـجاء رجل منهم كان غائبًا، فـمر به وقد سقط، فركضَ رأسَـه برجله، فدخل فيهـا عظم من رأسه فعلَّت عليه، فمات منها، فكان ذلك الرجل هو تمام المائة»[1].

(١) الأغانى ٢١/ ١٦٤.

ومع أن إجماع هذه الروايات لا يؤدى إلى الجزم بصحة هذه الحادثة، ففى نفوس الناس ولع بالغريب وبالطريف، ويكفى أن يخترع شخص فى بداية الأمر قصة يحاول إلباسها ثوب الحقيقة لينقلها عنه كثير من الناس عن حسن ظن أحيانًا، وعن جهل أو تجاهل أحيانًا أخرى. نقول مع أن إجماع هذه الروايات لا يؤدى إلى الجزم بصحة هذه الحادثة إلا أنه ليس هناك ما يمنع من حدوثها، وليس فى حدوثها ما يصطدم بالعقل أو ما يدخل فى باب المحال، وأيسَرُ ذلك المصادفة؛ فليس هناك ما يمنع أن تتصادف عثرة رجل بعظام ميت، يكون الميت هو الشنفرى، وخاصةً أنه أوصى ألاَّ يدفنوه، ولم تتحدث الروايات أنهم خالفوا وصيته ودفنوه، من المحتمل القريب حينئذ أن يؤدى هذا الجرح مهما صغر إلى تسمم فى الجسم فيودى بصاحبه.

ليس هذا بغريب، بل ما هو أبعد من ذلك ليس بغريب، والأبعد من ذلك أن يكون الشنفرى بعد موته - أعنى روحه - قد فعلت ذلك. وأيسر الإلمام بما أفاض فيه الباحثون حول الأرواح ومقدرتها على الحركة والعمل فضلاً عن الإدراك والعلم، أيسر الإلمام بذلك يذهب الغرابة عن هذه القصة، ولا يجعل حدوثها من روح الشنفرى بعد موته غريبا ولا بعيدًا، بل إن ذلك لا يصطدم بالدين اصطدامًا؛ فالدين لا ينفى فيما يتعلق بالروح شيئًا ولا يثبته، وإنما يفوض أمره إلى الله سبحانه الذى اختص فيما اختص به بعلم الروح ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[1].

وكما أن الروايات لم تستطع تحديد بداية حياة الشنفرى، فكذلك لم تستطع تحديد نهايتها. ولكن المرجح بوضوح أنها كانت فى الجيل السابق للإسلام مباشرةً؛ حيث إن آمنة أخت «تأبط شرًا» - وهو صديق الشنفرى - تزوجت من نوفل بن أسد القرشى، وأسلم عدى بن نوفل فى السنة الثامنة للهجرة.

* * *

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

لامية العرب

تثير هذه القصيدة قضيةً ذات بال فى الأدب العربى من حيث التنازع عليها بين العرب والعجم، ومعنى ذلك أنها ليست قصيدة عادية أو يسيرة الشأن، فالواقع أنها درة لامعة فى الأدب العربى كله، وقد تكون هناك قصائد أتيح لها قدر كبير أو صغير من الشهرة والذيوع لارتباطها بأحداث معينة، ولكن لا تُعرف قصيدة أخرى فى الشعر العربى كله تنافس لامية العرب فى موضوعها بالذات، وفى مقدرتها على تصوير لون من الحياة العربية هو حياة الصعلكة، وعلى التعبير عن حياة طائفة من المجتمع العربى وهم الصعاليك، وعلى وصف بيئة معينة فى الجزيرة العربية، هى البيئة التى اتخذ منها الصعاليك ميدانًا لنشاطهم، ومركزًا ومنطلقًا لغاراتهم، بما تشتمل عليه هذه البيئة من خصائص فى طبيعتها وفى حيوانها، وفى مناخها، وقد صيغ ذلك كله فى ثوب شعرى واضح الجودة بل واضح التميز والتفرد، ولسنا فى هذا التمهيد نريد التعرض لنقد القصيدة أو الحديث عن مزاياها، فإن لذلك موضعه فيما نستقبل من الحديث، وإنما نشير بذلك إلى الأهمية التى جعلت هذه القصيدة تحتل هذه المكانة حتى تصبح موضع تنازع بين الشعوب على ما فى هذا التعبير من تجاوز، فالواقع أنه لم يكن ينبغى أن يثار حولها نزاع؛ فإنها قصيدة عربية خالصة، لشاعر معين مشهور هو الشنفرى. ولكنها لما تمثله من قيمة أدبية فريدة تعرضت فى القديم لمحاولة تشبه السطو، ولكنها لم تنجح؛ لأنها كانت محاولة غير قوية من جهة، كما كانت كل الظروف ضدها من جهة أخرى. ثم الغريب أن تعود هذه المحاولة بعد أكثر من ألف عام من المحاولة الأولى، وللغرض نفسه، وهو محاولة سلخها من النسب العربى فى صورة التشكيك فى نسبتها إلى الشنفرى، وادِّعاء نسبتها إلى خلف الأحمر.

ولتوضيح ما ينطوى عليه هذا الإجمال يمكن أن نعرض جوانب هذه القضية فيما يلى:

صاحب لامية العرب هو الشنفرى، وقد ظل المجتمع العربى بما فيه من شعراء ورواة ونقاد يعرف ذلك ولا يرتاب فيه عدة أجيال متتالية، منذ الجاهلية حتى العصر

العباسى، ثم احتدم الصراع والتنافس العنصرى بين العرب والعجم، وأصبح واضحًا عنيفًا بعد أن كان خفيًا لينًا، وحينئذ عم التنافس حتى غطى كل جوانب الحياة والمجتمع، فما يكاد العرب يفخرون بشيء حتى ينبرى العجم أو من يسمون حينذاك الموالى فيفاخرونهم بشيء مماثل، ومن الواضح أن الشعر كان من أهم ما شُغل به العرب وتنافسوا فيه وحرصوا عليه فى كل عصورهم القديمة، وأنه لم يستطع شاغل آخر أن يشغلهم عنه. بل كانوا يتحايلون فى أحلك المشاغل وأهم المواقف ليكون الشعر عونًا لهم عليه، ومؤانسة لهم فيه، ولذلك كان من الطبيعى أن يكون الشعر من ميادين التنافس بين العرب والعجم، فإذا كان فى العرب شعراء، فليكن فى الموالى شعراء، وإذا كان شعر العرب جيدًا فليحاول شعراء الموالى أن يكون شعرهم منافسًا لهذه الجودة إن لم يتفوق عليها، وإذا كان فى تاريخ العرب شعر أو أدب يعتز به، فليبرز العجم ما فى تاريخهم من أدب يعتز به، وهكذا فيما عرف بالحركة الشعوبية التى تمثل الصراع والتنافس بين الشعب العربى والعنصر غير العربى، وخاصةً الفارسى.

وهذه اللامية لم ينازع أحد فى أنها درة أدبية متميزة، إذن فهى مما يعتز به الأدب العربى، ومما يحرص العرب على إبرازه حين يفاخرون بما فى أدبهم من درر وروائع. وحين نضع أنفسنا موضع المتصور لمجتمع متنافس الطوائف والعناصر، نجد أن هذا التنافس يمثله أو يتصدى له عادةً أفراد فى كل مجال من مجالات السياسة والاقتصاد والأدب وغير ذلك، بمعنى أن أفرادًا من كل فريق عادة هم الذين يتصدرون هذا الصراع أو التنافس فى كل ميدن، وبقية الفريق يقف من خلفهم مشجعًا ومتابعًا، ولكن الظاهر المتصدر هم هؤلاء الأفراد، حتى يبدو لمن يتابع الصراع من خارج الفريقين أنه صراع بين أفراد، وليس بين فريقين أو عنصرين.

واستمرت نسبة اللامية إلى الشنفرى دون أى شك فيها أو غبار حولها نحو أربعة قرون، نحو قرن قبل الإسلام، ونحو ثلاثة قرون بعده، ثم سُمعت همسة خافتة بأن هذه اللامية لخلف الأحمر، وليست للشنفرى، والذى نقل هذه الهمسة الوحيدة الخافتة هو أبو على القالى الذى عاش فيما بين سنتى ٢٨٨هـ ٣٥٦هـ، وقد كان دقيقا وأمينا فى نقل هذه الهمسة حيث حدد مصدرها صراحةً وبيَّن رأيه فيها ضمنا: أما مصدرها فقد نقل عن أستاذه أبى بكر بن دريد الذى عاش من سنة ٢٢٣هـ إلى سنة

٣٢١هـ أن هذه اللاميــة المنسوبة إلى الشنفـرى هى لخلف الأحمر، وذلك فى سـياق حديثـه عن خلف الأحمـر، وأما عن رأيه فى هذه الهـمسـة؛ فهـو وإن لم يناقشـها صراحة فـقد كان رده الضمنى عليهـا أبلغ من التصريح، حيث ذكر هذه الهـمسة أو الغمزة فى الجزء الأول مـن كتابه الأمالى[١] ثم جاء بـعد ذلك فى الجزء الثـالث من الكتاب نفسه وذكر نص اللامية كاملة[٢] منسوبةً إلى الشـنفرى دون أى شك فى هذه النسبة، ودون أى اعتبار لهذه الغمزة التى سبق له أن نقلها عن ابن دريد. وانتهى هذا التـشكيك عند هذا الحـد دون أن يُحدث أثرًا حـتى فى الشـخص الذى نقله ورواه. والسبب فى عدم تأثيـر هذا التشكيك أنه كما قلنا كانت قد انقـضت نحو أربعة قرون والمجتمع يعرف اللامية ويعرف صـاحبها، فلم يكن من السهل أن تحدِث هذه المحاولة أثرًا ظاهرًا.

وقد يقال: إذا كـان الأمر كذلك ففـيم الاهتمام بهذه الكلمـة التى لم تحدث أثرًا؟ والإجابة عن ذلـك أنها وإن كانت لم تحـدث أثرًا فى حينهـا، فقـد جاء فى العـصر الحديث من المسـتشرقين من اتخذ منهـا خيطًا لإحياء هذا التـشكيك، وإذا كان الرأى العام فى القـديم قد منع هذا التـشكيك أن يُحدث أثرًا لكون المجـتمع يعرف اللامـية ويعرف صاحبها، فإن هذا الرأى العـام فى عصرنا غير موجود، وترتب على ذلك أن أخذ بعض الدارسين العرب - بحسن نيـة فى أغلب الظن - يتابعون هذه النزعة التى خاض فيها بعض المستشرقين.

* * *

(١) الأمالى: ١/ ١٥٥.

(٢) الأمالى ٣/ ٢٠٥ - ٢٠٨.

نماذج من نقد اللامية

ونعنى من هذه اللمحة استعراض بعض النماذج التى لا يراد منها الاستقصاء، وإنما مجرد التمثيل لآراء بعض أئمة النقد والعلم على مختلف العصور، فى لامية العرب، من حيث هى قصيدة، أو من حيث احتوائها على معان تلفت النظر إليها فى تفوقها وامتيازها، ويمكن عرض هذه الأمثلة فى إيجاز كما يلى:

من القدامى :

١ - يقول أبو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦هـ عن اللامية بوصفها قصيدة: «وهى من المقدَّمات فى الحسن والفصاحة والطول»[1] فوصفها بأربع صفات محددة؛ أولها كونها من المقدمات، ثم الحسن والفصاحة والطول، ولكل صفةٍ منها مدلولها النقدى فى الأدب.

٢ - يقول أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ عن بعض ما يلفت النظر من معانى اللامية لتفوقه وتميزه: «ومما هو فصيح فى لفظه، جيد فى وصفه، قول الشنفرى:

أُطيل مِطالَ الجوع حتى أُميتَهُ ... وأضربُ عنه القلب صفحًا فيَذْهَل[2]

ثم يذكر البيتين التاليين لهذا البيت.

ورغم الإيجاز فى نقد العسكرى - على عادة النقاد القدامى - فقد أشار إلى أن هذه الأبيات قد اكتملت فيها جودة الشعر، سواء من حيث اللفظ أو المعنى.

٣ - يقول ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ فى سياق حديث عن صديقه العدوى النحوى: «كنت أعارض معه إعراب شيخنا عبد الله بن الحسين العكبرى لقصيدة الشنفرى اللامية إلى أن بلغنا إلى قوله:

(١) الأمالى ١/ ١٥٥.

(٢) المطال: بكسر الميم المماطلة. والمعنى: أغالب الجوع وأتناساه حتى أتغلب عليه. وفى البيت هنا اختلاف عن الأصل. انظر كتاب الصناعتين ٦٢.

وأستَفُّ تُرْبَ الأرض كى لا يرى له   علىَّ مِـنَ الطَّوْل أمــرؤٌ مُــتَطَوَّلُ[1]

فأنشد أبياتا لنفسه فى هذا المعنى، فقلت له: قول الشنفرى أبلغ؛ لأنه نزَّه نفسه عن ذى الطول. . .».

فى العصر الحديث

أولاً: المستشرقون:

لقد كان للمستشرقين - كما سبق - الفضل فى لفت الأنظار إلى قيمة اللامية، وإلى أنها درة أدبية فريدة تثير الإعجاب، وتبهر الأذواق الأدبية. ولا يقلل من هذا الفضل أن يكون بعضهم هو الذى أثار الشك فى نسبتها إلى صاحبها، فكل جائر مسئول وحده عن جوره، ولا تزر وازرة وزر أخرى، أما الغالبية العظمى من المستشرقين فقد بلغ إعجابهم باللامية ما يشبه الافتتان، وكأنهم حين يتحدثون عنها يتغنون بها أو يتغزلون فيها. ومن هؤلاء على سبيل المثال:

١ - **جورج ياكوب** الذى ينقل تاريخ الأدب العربى[2] أنه ترجم اللامية، وفى مقدمة هذه الترجمة يؤكد أن اللامية تنتهج مذهبًا شعريًا ممتازًا لدرجة تنبىء عن صاحب اللامية.

٢ - **كارل بروكلمان**، حيث يقول فى كتابه تاريخ الأدب العربى الذى نشر لأول مرة سنة ١٨٩٨م «أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل. وعلى حين يجعل الشاعر الجاهلى وصف الطبيعة، من الجبال والفيافى وغيرها غرضًا مقصودًا لذاته، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الإنسان نفسه وأعماله. وإذًا فليس هناك ما يحملنا على موافقة الذين افترضوا لهذه القصيدة اللامعة بين قصائد الشعر الجاهلى شاعرًا آخر غير الشنفرى الذى رُويت له القصيدة»[3] وكلام بروكلمان يتضمن أن اللامية استحدثت فى جودتها منهجًا شعريًا فى الهدف والتصوير والتعبير، وقد كان يمكن أن تأتى قصائد

---

(١) معجم البلدان ٣/ ٦٩٦. والطول: الفضل والمن، والمتطول: النعمة المتفضل بها، والمعنى: أفضل أكل التراب على نعمة يمن بها أحد علىَّ.

(٢) كارل بروكلمان ١/ ١٠٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٠٦، ١٠٧.

أخرى تتابع هذا المنهج، كالمألوف عادة فيما يستحدث من منهج أو مذهب، ولكن الواقع أن اللامية لم تتكرر فى مستواها الأدبى من أكثر من ناحية. وإلى نحو هذا يشير بروكلمان مع أنه لم يكن دقيقاً فى تعبيره عن موقف أبى على القالى، فهو يقول فى هذا السياق: «أما أبو على القالى فقد صرّح فى الأمالى بأنها من صنع خلف الأحمر» وهذا يوحى بأن هذا رأى أبى على القالى، والواقع أنه ليس رأيه، وإنما هو رأى أبى بكر بن دريد الذى يرويه القالى كما سبق. أما القالى نفسه فيعرف أن الشنفرى هو المنسوبة إليه اللامية، وهو يؤيد ذلك، كما ساق نص اللامية منسوبة إليه فى كتاب الأمالى نفسه.

٣ - **نالينو**: حيث يقول فى محاضراته التى أملاها فى جامعة القاهرة عن تاريخ الأدب العربى: «أما الشنفرى الأزدى فصاحب اللامية المشهورة التى يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه فى البرارى، كأنه لم يعاشر إلا السباع، وهى قصيدة غاية فى الجمال، تنطق بلسان حال الشاعر [١]. فهو يرى ضمناً أن الشنفرى يكفيه فخراً أن يكون صاحب هذه القصيدة، وأن هذه اللامية تكفى شرفاً لأى شاعر، بالإضافة إلى أنه جعلها تبلغ القمة فى الجمال، وهو وصف لا يُلقى جزافا من عالم ضليع.

ثانياً: الباحثون العرب:

كان الباحثون المعاصرون من العرب أشد المتحدثين عن اللامية تحاملاً عليها، ومحاولة لهدمها من جهتين، أو لسببين، هما:

أ - مع أن الواضح كما سبق أن اللامية ثابتة النسب إلى الشنفرى وأن ما عدا ذلك لا يعدو أن يكون تشكيكا غير أمين، أو غير دقيق على خير الفروض. إلا أن الباحثين المعاصرين من العرب تركوا الأصل، وهو ثبوتها للشنفرى، وجنحوا إلى الجانب الضعيف جداً وهو الشك فى هذا الأصل، ولسنا ندرى لماذا؟ وحتى مع القول بأنهم إنما يتابعون فى ذلك المستشرقين تحت دافع التأثر بهم والتلمذة العلمية لهم، نقول مع أن هذا واضح حقاً وخاصة فى نقلهم أدلة التشكيك التى ساقها المستشرقون دون فحصها أو مراجعتها علمياً. نقول مع ذلك: فإن التساؤل قائم،

(١) تاريخ الآداب العربية كارلو نالينو ٧٢ والكتاب نص المحاضرات التي ألقاها سنتي ١٩١٠، ١٩١١م.

وهو لماذا تركوا موقف المستشرقين المؤيدين لثبوت اللامية للشنفرى وهم الغالبية العظمى، وانحازوا إلى الفريق الضعيف جداً من المستشرقين الذى حاول التشكيك فى نسبتها للشنفرى؟

ب - الناحية الثانية من ناحيتى هدم اللامية حينما تنتفى عن الشنفرى، أن اللامية تكاد تقتصر على تصوير حياة الصعاليك، وكل الذين تحدثوا عنها يعرفون ذلك ويقررونه لأنه واضح وواقع ملموس مشاهد، والشنفرى صعلوك، فهو الذى يوصف بالصدق الأدبى أو الفنى حينما نقول إنه صاحب اللامية؛ لأنه حينئذ يصور حياة حقيقية يعيشها ويعانيها، أما إذا نسبناها إلى خلف الأحمر أو حماد عجرد أو غيرهما من غير الصعاليك فستفقد اللامية دعامةً أساسية تقوم عليها، ويقوم عليها أى أدب وهى الصدق الأدبى، وهو معنًى يتفق النقاد على أنه من أهم الأسس التى يقوم عليها أى أدب حقيقى؛ فحينما نقول إن اللامية من صنع خلف الأحمر، الشاعر العالم الوادع، الغارق فى الدعة والطمأنينة ولين العيش، والذى لم يتصعلك بإجماع الرواة، ولم يعاشر الصعاليك، ولم يَخبُر حياتهم، ولم يذق شيئاً مما تزخر به من مرارة العيش، ورهبة الحياة، وقلق النفس، وتوقع المكروه فى كل حين، وغير ذلك مما يمسى عليه الصعلوك ويصبح، ولا يجد شيئاً سواه فيما بين ذلك. حينما نقول إن اللامية من صنع خلف الأحمر نكون قد هدمنا اللامية هدمًا، وجعلناها أدباً زائفاً كاذباً، يبعد عن الحقيقة بمقدار بعد خلف عن حياة الصعاليك، وهو بعدٌ لا نهاية له؛ لأنه لا وجه للمقارنة بين حياة خلف وحياة الصعاليك.

ولكن كارل بروكلمان يضيف إلى ذلك ملاحظة من صميم النقد الموضوعى، ليت باحثينا العرب كانوا أبصروها أو أشاروا إليها مع وضوحها، حيث يقول كارل بروكلمان: «ولكن القصائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائما بعمود الشعر القديم وطابعه، أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل» فمهما حاول خلف أن يقلد أو ينحل على غيره من الشعراء - حتى ولو كانوا من الصعاليك - فمنهجه هو الطابع التقليدى للشعر القديم، هذا الطابع الذى يسميه القدامى عمود الشعر، وكون الشعر للصعاليك لا يمنع أن يكون ذا طابع تقليدى.

الفهرس

رقم الأيداع :	٤١٠٨ / ٩٩
الترقيم الدولى :	I.S.B.N .977 - 241 - 2 67 - 5